تأملات
في سورتي يس والصافات

تأليف

الدكتور

شحاته حسيب الفيومي

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م

دار الطباعة المحمدية

٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة

إهداء

إلى الإنسان الذى اكتملت فيه معانى الإنسانية ، وجمعت فيه الفضائل البشرية .

إلى الإنسان الذى ينزل منه السيل ، ولا يرقى إلى مقامه ملك ولا طير .

إلى الإنسان الذى أخرج هذه الأمة من الظلمات إلى النور ، ونأى بها عن الغرور .

إلى حصن هذه الأمة عندما تلم بها داهيه . ويأخذ بحجزها يوم القيامة فيقيها من الهاوية .

إلى رسول الله سيدنا محمد ﷺ أهديه هذا العمل ، راجيا من الله تعالى أن يصلى عليه عدد أنفاس خلقه وزنة عرشه ومداد كلماته .

دكتور / شحات حسيب الفيومى

المقدمة

الحمد لله الذى تفضل على هذه الأمة بنبيها المرسل ، وكتابه المنزل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، يرمى بمناهج الله كأمواج الأنهار، فاتسع على أهل الأفكار طريق الإعتبار، بما فيه من القصص والأخبار ، ودحض بحججه شبه كل عتل جبار ، فاتضح به سلوك المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، بما فيه من الأحكام ، مفرقا فيه بين الحلال والحرام ، من تدبره أيقن أنه الضياء والنور وفيه النجاة من الغرور ، والشفاء لما فى الصدور .

وبعد . . .

فهذه تأملات فى سورتى يس والصافات تمخض عنها تفسير لهاتين السورتين، وقفت حيال كل آية مفسراً لها مبينا أثناء التفسير معانى الألفاظ والجمل ومواقعها من الإعراب والأساليب البلاغية فيها وسر مجيئها على النمط القرآنى المعجز واستعنت على هذا التفسير بالقرآن فما جاء موجزاً فى موطن أطنب فى موطن آخر فإن لم أجد المعنى فى القرآن وليت وجهى شطر السنة فإنها تفسر بعض ما جاء فى القرآن كما أخبر بذلك الله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم)[1] .

فإن عز فى السنة هذا المعنى ولم أجده فيها وجهت وجهى قبل أقوال الصحابة فهم أعرف الناس بالقرآن حيث عاصروا نزوله ونزل بلغتهم ،

---

(١) ابراهيم آية ٤

فإن لم أجد هذا عندهم بحثت فى كلام التابعين فهم الذين عايشوا الصحابة وتتلمذوا عليهم .

ومن جهة أخرى إن كان للآية سبب نزول سقت سبب نزولها ، وغالباً ما أذكر فى هذا التفسير مناسبة الآية بما قبلها ومناسبة السورة بما قبلها .

وإذا كان فى الآيه خلاف حول مفهوم منها أسوق أوجه الإختلاف وأبين أوجه الإئتلاف وأقوم بترجيح بعض الآراء على بعضها ، وأدلى بدلوى فى ذلك مصحوباً بالأدلة ، وإذا جادت بعض الآيات بإشارة إلى حقيقة علمية بينت ذلك مستعينا بآراء الحاذقين فى تلك العلوم .

وفى النهاية أقول ماورد فى هذا التفسير من صواب هو من الله وماوقع فيه من خطأ فتقصير منى والله أسأل أن يغفر لى خطاياى .

د/ شحات حسيب الفيومى

أشمون منوفيه فى ١٩٨٥/٧/١

مقدمة

الشروط الواجب توافرها فى الباحث فى ميدان القرآن

والمنهج الذى يجب اتباعه

أولا : شروط المفسر :

ان القرآن منهج الله لعباده وهو معجز فى أسلوبه ونظمه ومعانيه واشتماله على الأمور الغيبية والمتصدى لتفسيره لابد أن يكون أهلا لحمل تلك الأمانة وأن يكون من الحاذقين بجميع الفنون المتعلقة بالدراسات القرآنية . فمن لم يكن أهلا ويقحم نفسه ويقول فيه برأيه فهو آثم .

عن أبى معمر قال : (قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه أى أرض تقلنى ؟ وأى سماء تظلنى ؟ اذا قلت فى كتاب الله بما لا أعلم)(1) .

فلا بد أن يكون من أهل القرآن فالطبيب لا يحذق الا فى مجاله فلا يستطيع أن يجيد فن الهندسة فلكل واحد مجاله الذى حذقه وبرع فيه فللقرآن أهله وعلى غير أهله أن يحجموا عن الخوض فى بحره حتى تتوافر فيهم الشروط التى تؤهلهم لأن يغوصوا فى بحره ويستخرجوا لآلئه .

أولا : أن يكون عالما فى العلوم الآتية :

١ — أن يكون عالما باللغة العربية فان القرآن نزل بلغة العرب، فلا بد أن يكون حاذقا فى فقه اللغة يعرف معانى الكلمات ويكون ملما بمعانى

---

(1) مقدمة ابن كثير مجلد ١ ص ١٦

الكلمة الواحدة ، فبعض الكلمات العربية لها معانى متعددة فيأتى بالمعنى المتفق وسياق الآية فمثلا : قال تعالى :(لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ، فلفظ كتاب مشترك بين معنين :

المعنى الأول : (مكتوب) ويخدمه قوله (يمحو) .

والمعنى الثانى : (الزمان) ونجد منه قوله (أجل والمراد هنا الزمان) .

وقال تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) فالأمر يتردد بين معانى متعددة فهو إما الساعة وإما العذاب والمراد هنا الساعة .

فلابد أن يكون عالما بجميع معانى الكلمة الواحدة ، ويسوق المعنى المواكب لسياق النص .

٢ — أن يكون عالما بالنحو والصرف: فيعرف مواقع الإعراب وحذف الكلمات والجمل ، فمثلا قال تعالى :(وكلوا واشربوا) لم يعين المأكول أو المشروب لأنه مباح والمباحات لاتكاد تنحصر .

وعلم الصرف بواسطته يدرك الباحث بناء الكلمة ومدلولاتها (وحكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال من بدع التفاسير قول من قال : ان الإمام فى قوله تعالى « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » سورة الإسراء آية ٧١ — جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال وهذا غلط أوجبه جهله بالتصاريف فان أما لا تجمع على إمام)(١) .

٣ — أن يكون عالما بالبلاغة وفروعها الثلاثة (البيان — المعانى — البديع) ، وسأسوق نماذج لأقسام هذه الفنون الثلاثة :

---

(١) د. محمد حسين الذهبى فى كتابه التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٢٦٦

(أ) البيان : وهو إيراد المعنى الواحد فى أساليب مختلفة لوضوح الدلالة عليه فمن أقسام البيان :

التشبيه ومثاله :ـــ قال تعالى (طلعها كأنه رءوس الشياطين)(١) .

وقال تعالى :(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون)(٢) .

وقال تعالى: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح)(٣) .

وقال تعالى : (وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام) (٤) .

ومن أقسام البيان : الحقيقة والمجاز :

ولما كان القرآن مترعا بأسلوب الحقيقة أسوق مثالين للمجاز : قال تعالى عن فرعون : (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين)(٥) .

وقال تعالى عن فرعون : (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب)(٦) .

ففى الآية الأولى أسند الذبح إلى فرعون مع أن الذابح هم عماله الذين ينفذون تعاليمه . وأسند إليه لأنه الآمر به فهو مجاز مرسل علاقته السببية .

---

(١) سورة الصافات آية ٦٥ (٢) سورة البقرة آية ١٧
(٣) سورة الكهف آية ٤٥ (٤) سورة الرحمن آية
(٥) سورة القصص آية ٤ (٦) سورة غافر آية ٣٦

وفى الآية الثانية أسند بناء الصرح لوزيره هامان مع أنه لا يقوم بالبناء بنفسه، بل يقوم به العمال وأسند اليه لأنه الآمر به فيكون مثل المجاز فى الآية الأولى (المجاز فى التركيب ويسمى مجاز الاسناد والمجاز العقلى وعلاقته الملابسه وذلك أن يسند الفعل أو شبهه الى غير ما هو له أصالة لملابسته له كقوله تعالى : « يذبح أبناءهم » ، « ياهامان ابن لى » ، نسب الذبح وهو فعل الأعوان إلى فرعون والبناء ، وهو فعل العملة الى هامان لكونهما آمرين به)(١) .

مثال المجاز أيضاً :(قال تعالى : فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)(٢)، فالمعنى الحقيقى فما ربحوا فى تجارتهم والربح والتجارة مجاز استعمل فى غير المعنى الحقيقى .

والمراد بذلك بيان ثمرة من اختار الضلال وترك الهدى .

ومن أقسام البيان : الاستعارة :

مثال الاستعاره : قال تعالى:(وأنه فى أم الكتاب)(٣) . فهنا استعارة : فالمراد بأم الكتاب أى أصله شبه الأصل بالأم بجامع ما ينشأ عنهما من التفرع ثم حذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية .

وقال تعالى :(وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية)(٤) فهنا استعارة : شبه النار المحيطه بالعاصى بالأم التى ضمت ولدها بجامع الجمع والضم فى كل ثم حذف المشبه وهى النار على سبيل الاستعارة التصريحية .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن جـ٣ صـ١٢٠ - ١٢١ ملخصا
(٢) سورة البقرة آية ١٦
(٣) سورة الزخرف آية ٤
(٤) سورة القارعة آية ٨ — ٩

ومن أقسام البيان : الكناية والتعريض :

فالكناية: هي لفظ يراد به لازم معناه ، كقولنا فلان طويل النجاد : كناية عن طوله وفلان كثير الرماد ، كناية عن كرمه ، ومثالها في القرآن : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)(١) فكنى عن الجماع بالحرث، وقوله تعال : (فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به)(٢) فكنى عن الجماع بالغشيان .

وقوله تعالى : (كانا يأكلان الطعام)(٣) فكنى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام .

وأما التعريض : (فإنه الدلالة على المعنى من طريق المفهوم : وسمى تعريضاً لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ أي من جانبه ، ويسمى التلويح لأن المتكلم يلوح منه للسامع مايريده ، كقوله تعالى : « قال بل فعله كبيرهم هـذا فاسألوهم أن كانوا ينطقون »(٤) ، لأن غرضه بقوله : « فاسألوهم » على سبيل الإستهزاء وإقامة الحجة عليهم بما عرض له به من عجز كبير الأصنام عن الفعل مستدلا على ذلك بعدم إجابتهم إذا سئلوا ولم يرد بقوله : « بل فعله كبيرهم هـذا » نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم فدلاله هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة(٥)) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٣

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٩

(٣) سورة المائدة آية ٧٥

(٤) سورة الأنبياء آية ٦٣

(٥) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي في «البرهان في علوم القرآن» ج ٢ ص ٣١١

(ب) المعانى :

ومن أقسامه : الإيجاز والأطناب والمساواة :

لأن اللفظ إن قل مع عدم الإخلال بالمعنى فهو الإيجاز وأن زاد اللفظ لفائدة فهو الأطناب وأن تعادل اللفظ مع المعنى فهى المساواة :

فمثال الإيجاز : قوله تعالى « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف »(١) التقدير غفرت خطاياه ولم تحسب عليه ، بل له حسنات ، وقوله تعالى : (أخرج منها ماءها ومرعاها)(٢) ، وهذا النص موجز ويتناول كل المعلومات والمشروبات والملبوسات وما يحتاجه الناس فى معايشهم .

وقوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »(٣)، فهذه الآية رغم وجازتها اشتملت على الواجبات المتمثلة فى العدل واشتملت على المنهيات المتمثلة فى الفحشاء والمنكر، واشتملت على الإخلاص المتمثل فى الإحسان واشتملت على النوافل المتمثلة فى قوله « يعظكم لعلكم تذكرون » يقول البيضاوى عند تفسيره لهذه الآية (هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضى الله عنه ولو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شىء وهدى ورحمة للعالمين ، ولعل ايرادها عقيب قوله « ونزلنا عليك الكتاب » للتنبه عليه)(٤) .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥
(٢) سورة النازعات آية ٣١
(٣) سورة النحل آية ٩٠
(٤) تفسير البيضاوى ص ٩٩١

وقوله تعالى : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون »(١) ، فهـــذه الآية وجيزة واشتملت على الأمور الآتية :

(نادت — وكنّت — ونبهّت — وسمّت — وأمرت — وقصت — وحذّرت — وخصّت — وعمّت — وأشارت — وعذرت : فالنداء « يا » والكناية « أى » والتنبيه « ها » والتسمية « النمل » والأمر ادخلوا والقصص « مساكنكم » والتحذير « لا يحطمنكم » والتخصيص « سليمان » والتعميم « جنوده » والإشارة « وهم » والعذر « لا يشعرون » فأدت خمسة حقوق حق الله وحق رسوله ، وحقها ، وحق جنود سليمان)(٢) .

مثال الأطناب :

سورة يوسف فأطنب فى قصته ولم يخل الإطناب من الفائدة .

مثال المساواة :

ولها أمثلة كثيرة فى القرآن منها : قال تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً »(٣) وقال تعالى : « كل أمرىء بما كسب رهين »(٤) وقال تعالى : « فمن كفر فعليه كفره »(٥) ،

---

(١) سورة النمل آية ١٧

(٢) د / محمد عبد المنعم القيعى فى كتابه « الأصلان فى علوم القرآن » ص ١٤٢

(٣) سورة المزمل آية ٢٠

(٤) سورة الطور آية ٢١

(٥) سورة فاطر آية ٣٩

فهذه الآيات أتت فيها الألفاظ على قدر المعانى لاتنقص عنها ولا تزيد، ولو حاول بليغ أن يزيد فيها لفظاً لجاءت الزيادة فضولا ، أو أراد أن ينقص كلمة لكان ذلك إخلالا .

ومن أقسام علم المعانى : الحصر والإختصاص :

فالحصر أو القصر : إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما سواه : قال تعالى : « وما محمد إلا رسول »(١) ، وهذا قصر الموصوف على الصفة .

قال تعالى : « إنما الله إله واحد »(٢) وهذا قصر الإفراد يخاطب من يعتقد الشركة .

وقال تعالى : « ربى الذى يحيى ويميت »(٣) وهذا قصر قلب ويخاطب به من يعتقد إثبات الحكم لغير ما أثبته المتكلم ، وأقتصر على هذه الطرق من طرق الحصر .

الإختصاص : وهو تقديم ماحقه التأخير وقصده من جهة خصوصه، قال تعالى : « أفغير دين الله يبغون »(٤) .

وقال تعالى : « وبالآخرة هم يوقنون »(٥) فتقدم الجار والمجرور ومقصود به الإختصاص ، وأكتفى بهذه النماذج من بحوث علم المعانى .

---

(١) سورة آل عمرآن آية ١٤٤
(٢) سورة النساء آية ١٧١
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٨
(٤) سورة آل عمران آية ٨٣
(٥) سورة البقرة آية ٤

(ج) البديع :

(وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال وبعد رعاية وضوح الدلالة)(١) ومن بحوثه : —

التورية :

وهو لفظه له معنيان . معنى قريب غير مراد ومعنى بعيد وهو المراد : مثل قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى »(٢)فالمعنى القريب الإستقرار فى مكان وهو منزه عنـــه سبحانه وتعالى ، والمعنى البعيد : الإستيلاء والتصرف وهو المراد .

وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس »(٣) .

(فالمعنى القريب هو العموم . . . والبعيد هو الكف والمنع . . . والتاء للمبالغة . . . والمعنى القريب غير مراد لأن التوكيد لا يتقدم على المؤكد)(٤) .

الجناس :(وهو تعدد اللفظ الواحد وهو فى كل موضع له معنى خاص بهذا الموضع : قال تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا

---

(١) د/ محمد خليفة والشيخ / عبد الحكيم نعناع فى كتابهما « مفتاح البلاغة » .

(٢) سورة طه آية ٥

(٣) سورة سبأ آيه ٢٨

(٤) الدكتور / محمد عبد المنعم القيعى فى كتابه « الأصلان فى علوم القرآن » ص ١٤٩

غير ساعة »(١) فالساعة الأولى بمعنى القيامة والساعة الثانية المــدة الزمنية .

المشاكلة : وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، قال تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين »(٢) وقال تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها »(٣) .

المطابقة : وهى الجمــع بين معنيين متقابلين : قال تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى »(٤) وقال تعالى : « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور »(٥) وقال تعالى: « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٦) .

هذه نماذج لبعض بحوث فنون البلاغة الثلاثة فلابد للباحث أن يتزود بفنون البلاغة وأن يكون عالما بها حتى يتسنى له تفسير الآيات تفسيراً يراعى فيه مقتضى الحال وغيره .

٤ — أن يكون عالما بأصول الفقه حتى يستطيع إخراج الحكم من الآيات إذا تعرض له أو يحكم على بعض المذاهب بالصواب أو الخطأ .

٥ — أن يكون عالما بعلم الكلام « التوحيد » (وهو العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه أو هو العلم الباحث فيما

---

(١) سورة الروم آية ٥٥
(٢) سورة آل عمران آية ٥٤
(٣) سورة الشورى آية ٤٠
(٤) سورة النجم آية ٤٣ — ٤٥
(٥) سورة الرعد آية ١٦
(٦) سورة الزمر آية ٩

يجب لله وما يستحيل وما يجوز . وفى السمعيات)(١) ، فلا بد أن يكون عالما فى هـــذا العلم حتى يعرف حق الله تعالى وما يتعلق بذاته من واجب وجائز ومستحيل وما يتعلق برسله من جائز وواجب ومستحيل . ويعرف السمعيات .

٦ — أن يكون عالما بأسباب نزول الآيات وعالما بقصص القرآن ، فبعض الآيات لها أسباب نزول ولا بد من معرفة سببها كقوله تعالى (ص والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حـين مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا . إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هـذا إلا اختلاف . أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب)(٢).

(أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءته قـــريش وجاءه النبى ﷺ فشكوه إلى أبى طالب فقال : يا ابن أخى ما تريد من قومك ؟ قال أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم العجم الجزية ... كلمة واحـدة قال ما هى ؟ قال : لا إله إلا الله فقالوا : إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب)(٣) .

فهذا سبب نزول الآية الآنفة .

وقال تعالى : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو

---

(١) د/ سليمان خميس فى كتابه « توضيح العقائد النفسية » ص ٨
(٢) سورة ص آية ١ — ٨
(٣) جلال الدين السيوطى فى كتابه « أسباب النزول » ص ١٤٦ .

خير للصابرين . واصبروا وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[١] » .

قال السيوطى فى « أسباب النزول[٢] » ، (أخرج الحاكم والبيهقى فى الدلائل والبزار وعن أبى هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ . وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال : لأمثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل والنبى ﷺ . واقف بخواتيم سورة النحل) .

وأن يكون عالما بقصص القرآن فإن كل قصة فيه لم تنزل نجما واحدا إلا قصة يوسف وبعض القصص نزل مقترنا مع غيره وأما الآخر فنزل منجما على فترات وفى سور مختلفة . فإذا أراد أن يبحث عن قصة يقتفى أثرها فى القرآن وبعد ذلك تكتمل له جوانب القصة .

٧ — أن يكون عالما بالناسخ والمنسوخ فى القرآن وعالما بأنواعه : قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير »[٣] .

وأسوق نماذج عليه :

(أ) نسخ الحكم والتلاوة معا ويدل على وقوعه سماعاً ما ورد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات . وتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن »[٤] .

---

(١) سورة النحل آية (١٢٦—١٢٨)
(٢) جلال الدين السيوطى فى كتاب « أسباب النزول » ص١٠٨
(٣) سورة البقرة آيه ١٠٦
(٤) سنن أبى داود جـ١ ص٤٧٦

ومعنى وهن فيما يقرأ : أي إلى مقارنة وفاة الرسول ﷺ أو لم يبلغ النسخ كل الناس إلا بعد وفاة الرسول ﷺ فتوفى وبعض الناس يقرؤها .

(ب) نسخ الحكم دون التلاوة :

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنو إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة)(١) .

وهذه الآية منسوخة الحكم بقوله تعالى : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله »(٢) .

فحكم الآية وهو تقديم الصدقة قبل منجاة الرسول ﷺ . منسوخ بحكم الآية الثانية . وتلاوة كلتيهما باقيان .

(ج) نسخ التلاوة دون الحكم :

فبعض الآيات نسخت فلا تتلى وبقى حكمها يعمل به ومثال هذ النوع كما ساقه د/ موسى شاهين (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه ، فيعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول . كما روى « أنه كان فى سورة النور . الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله(٣))(٤)

---

(١) سورة المجادله آية ١٢

(٢) سورة المجادلة آية ١٣

(٣) سنن أبى داود جـ٢ص٤٥٦ ونصه : « عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب فقال : أن الله بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا من بعده)

(٤) اللآلىء الحسان فى علوم القرآن ص٢٢١

فلا بد أن يكون الباحث عالما بالنسخ وأدلته وأنواعه .

(٨) أن يكون عالما بالمحكم والمتشابه :

قال تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغا الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله)[١] .

والمتشابه ثلاثة أنواع : (النوع الأول : ما لا يستطيع البشر جميعا أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته . وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب . النوع الثانى : ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من الاجمال والبسط والترتيب . النوع الثالث : ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم)[٢] .

٩ — أن يكون عالما بالمجمل ويدرك توضيح المشكل وتخصيص العام وتقييد المطلق : وهذا فى السنة فلا بد أن يكون واعيا لها حتى يعرف الأحكام فمن الأول : بيانه عليه الصلاة السلام لمواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها ، وكيفيتها وبيانه لمقادير الزكاة وأوقاتها ، وأنوعها وبيانه لمناسك الحج ، ولذا قال « خــذوا عنى مناسككم » وقال : صلوا كما رأيتمونى أصلى »

ومن الثانى : تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله

---

(١) سورة آل عمران آية ٧.

(٢) الشيخ عبد العظيم الزرقانى فى كتابه « مناهل العرفان فى علوم القرآن» ج٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ملخصا .

تعالى : «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر(١)» بأنه بياض النهار وبياض الليل .

ومن الثالث : تخصيصه الظلم فى قوله تعالى : «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم(٢)» بالشرك فان بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم حتى قال : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبى ﷺ : «ليس بذلك إنما هو الشرك(٣)» .

ومن الرابع : تقييد اليد فى قوله تعالى :«فاقطعوا أيديهما (٤)» باليمين .

١٠ — أن تكون لديه الموهبة . وهى العلم الذى يقذفه الله فى قلب العالم العامل .

---

(١) البخارى جـ٦ص٣١، ونصه : عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قلت يارسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال إنك لعريض القفا أن أبصرت الخيطين ثم قال لا : بل هو سواد الليل وبياض النهار » .

(٢) سورة الأنعام آية ٨

(٣) البخارى جـ٦ ص١٤٣، ١٤٤ . ونصه : «عن عبدالله رضى الله عنه — يعنى ابن مسعود — قال : لما نزلت هذه الآية «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم» شق ذلك على اصحاب رسول الله ﷺ : وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم ، فقال رسول الله ﷺ : إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه «أن الشرك لظلم عظيم» .

(٤) سورة المائدة آية ٣٨

المنهج الذى يسلكه الباحث فى القرآن

لقد أشرت إلى العلوم التى يجب على باحث القرآن أن يجعلها زاداً له فى محيط القرآن ، فلكى يستخرج لآلىء القرآن ويبرز درره فعليه التزود بها وبذلك يضمن السلامة فى آرائه أما إذا أقحم الباحث نفسه فى هذا الميدان وزاحم العلماء غير مبال بوعورة ميدانه يعرض نفسه للتهلكة لأنه يقول قولا وهو غير مراد لله ويقسر المفكرين على قبول خطئه ، وهذا الخطأ يؤدى به إلى القلت[1] .

بعد أن يتزود الباحث بتلك العلوم لابد أن يدرج على هذا المنهج الآتى فى بحثه فى القرآن :

أولا : أن يطلب تفسير الآيات المراد بحثها من القرآن نفسه فما أوجز فى موضع أسهب فى موضع آخر ، فمثلا قال تعالى: «وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون»[2] .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيرها : (لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار ، نبه أن بين الجنة والنار حجابا ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة قال ابن جرير : وهو السور الذى قال الله تعالى : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » وهو الأعراف الذى قال الله تعالى : « وعلى الأعراف رجال ») . .

---

(١) القلت : الهلاك .

(٢) سورة الأعراف آية ٤٦

وقال عن هذا الكافرين (لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق)(١) .

ولقد وصف الله بعض ألوان العذاب يوم القيامة بقوله : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ، مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد »(٢) .

وقوله تعالى : « واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ، قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً »(٣) .

وقوله تعالى : « إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمون . ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون »(٤) .

وقوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ،

---

(١) سورة الرعد آيه ٣٤
(٢) سورة إبراهيم آية ١٥ — ١٨
(٣) سورة الفرقان آية ١١ — ١٥
(٤) سورة الزخرف آية ٧٤ — ٧٨

وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين »(١) .

وقوله تعالى : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير »(٢) .

وقوله تعالى : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون »(٣) .

وقوله تعالى : « يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ، كلا إنها لظى نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى »(٤) .

وقوله تعالى : « إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لا بثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً »(٥) .

---

(١) سورة الواقعة آية ٤١ — ٥٦
(٢) سورة تبارك آية ٦ — ٨
(٣) سورة الحاقة آية ٣٠ — ٣٧
(٤) سورة المعارج آية ١١ — ١٨
(٥) سورة النبأ آية ٢١ — ٢٨

فهذه الآيات قد فسرت وشرحت وصف جوانب من عذاب الآخرة الذى أوجز فى الآية الأولى .

ثانياً : إذا لم يجد الباحث التفسير فى كتاب فعليه أن يولى وجهه قبل السنة ، فأقوال الرسول ﷺ شارحة للقرآن بجانب أنها المصدر الثانى للتشريع الإسلامى ، فالمسلمون يستقون منها قوانينهم وإرشادهم ، قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم »(١) .

فمثلا قال الله تعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون »(٢) .

ولقد فسر الرسول ﷺ قوله : « بعض آيات ربك » بقوله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال : رسول الله ﷺ (لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)(٣) .

ثالثاً : إذا لم يجد فى السنة تفسير الآيات المراد بحثها فعليه أن ينقب فى أقوال الصحابة عن تفسيرها فهم القوم الذين نزل القرآن بلغتهم وهم الذين عايشوا نزوله فهم أعرف من غيرهم بأحواله وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه ومطلقه ومقيده وعمومه وخصوصه فعلى الباحث (الرجوع إلى أقوال الصحابة فهم أدرى الناس بذلك لما خصهم الله من الفهم والعلم

---

(١) سوره النحل آية ٤٤

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٨

(٣) البخارى جـ ٦ ص ٧٣

الصحيح والعمل الصالح ، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله فقد بين الرسول الله ﷺ لأصحابه معانيه ، كما قرأ عليهم ألفاظه ، قال تعالى: « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

وقد ورد أن التفسير المنقول عن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع — وخصه ابن الصلاح بما فيه سبب نزول ونحوه مما لامجال للرأي فيه وإلا فهو موقوف — وقد نقل السيوطي في « الإتقان » عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : « حدثنا الذين كانوا يقرؤن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » ، وقد روى أحمد(١) في مسنده عن أنس بن مالك قال : (كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا » ، وفي الموطأ(٢) (أن مالكا بلغه أن ابن عمر أقام على حفظ البقرة ثمان سنين) وذلك يدل أنهم وضعوا نصب أعينهم قول الله تعالى : « كتاب أنزلناه إليه مبارك ليدبروا آياته »(٣) وقوله : « أفلا يتدبرون القرآن »(٤) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه غير ممكن)(٥) ، ولقد فسر الصحابة بعض الآيات والكلمات في القرآن مثاله .

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٠ جزء حديث بلفظ « فينا بدل أعيننا » .

(٢) موطأ مالك ص ١٤٥ بلفظ مكث بدل أقام .

(٣) سورة ص آية ٢٩

(٤) سورة النساء آية ٨٢

(٥) د / عبد العظيم الغباشي في كتابه « تاريخ التفسير والمفسرين » ص ٧ — ٨

قال تعالى : « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت »(١) .

لقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما « أعصار » يقول الطبرى (٦١٠ — حدثنى محمد بن عبد الله بريغ قال : حدثنا يوسف بن خالد السمتى قال حدثنا نافع بن مالك عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله « إعصار » فيه نار ريح فيها سموم شديد)(٢) .

فإن لم يجد الباحث تفسير الآيات فى أقوال الصحابة فالأولى له أن يبحث عن هذا فى أقوال التابعين فهؤلاء عايشوا الصحابة وتعلموا منهم ، ومثال تفسير بعض التابعين لبعض آيات القرآن الكريم :

قال تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك »(٣) .

يقول الطبرى فى تفسيرها (٥٠٣٣ — حدثنا عمرو بن على ومحمد بن بشار قالا حدثنا عبد الرحمن بن مهدى قال حدثنا حماد بن زيد عن على ابن الحكم عن الضحاك بن مزاحم : « وعلى الوارث مثل ذلك ، قال أن لا يضار —٥٠٣٤ — حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن عاصم الأحول عن الشعبى فى قوله « وعلى الوارث مثل ذلك » قال لا يضار ولا غرم)(٤) .

رابعاً : إن لم يجد تفسير الآية فى القرآن ولا فى أقوال الصحابة ولا فى أقوال التابعين ، وأراد استنباط بعض العلوم من الآيات فعليه أن يعمل الرأى بشرط أن يكون موافقا للعربيه غير متناف مع الشرع وأن

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٦

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ٥ ص ٥٥٢

(٣) سورة البقرة آية (٢٣٣) .

(٤) جامع البيان عن تأويل أى القرآن جـ ٥ ص ٦٣

يكون قد وقف على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وعرف كل شيء عن الآيات غير متبع لهوى فى نفسه ، والرسول ﷺ لم يفسر القرآن كله فلقد فسر نذراً يسيراً منه فلو فسره كله لأوصد الرتاج أمام المجتهدين والمفسرين وتجمد تفكير المسلمين حيال القرآن فلا يتعدوا مافسره، ولكنه ترك معظم الآيات من غير تفسير ، والعلماء يجتهدون ويستنبطون ، فهناك جيل يستنبط منه الإشارات إلى بعض العلوم الكونية ، والبعض يستنبط منه الإيماءات التى تقوم النفس البشرية وغرائزها . وتختلف الإستنباطات من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل فالعقول ليست واحدة .

« لطيفه » :

لقد تكلم العلماء فى القرآن كله واختلفت مشاربهم فى تفسير بعض الآيات وتباينت مفاهيم ، وعلى العالم إذا قام حيال آية لتفسيرها واطلع على الآراء المترعة بالإتجاهات أن يعمل النظر فى الآراء والخلافات ولا يرجح رأياً على آخر إلا إذا كان عالماً بقانون الترجيح .

قانون الترجيح :

كل لفظ احتمل معنيين فصاعداً هو الذى لايجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى فإن كان أحد المعنيين أشهر وجب الحمل عليه إلا أن يقوم الدليل على أن المراد هو الخفى .

وإن استويا والاستعمال فيهما حقيقة لكن فى أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية وفى الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى إلا أن يدل دليل على ارادة اللغوية كما فى « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ولو كان فى أحدهما عرفية ، والآخر لغوية فالحمل على العرفية أولى ، وإن اتفقا

فى ذلك أيضاً ، فإن تنافى اجتماعهما ولم يكن ارادتهما باللفظ الواحد كالقراء للحيض والطهر ، أجتهد فى المراد منهما بالأمارات الدالة عليه ، فما ظنه فهو مراد الله تعالى فى حقه ، وإن لم يظهر له شىء فهل يتخير فى الحمل على أيهما شاء ؟ أو يأخـــذ بالأغلظ حكما ؟ أو بالأخف ؟ أقوال . وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين ، ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز والفصاحة ، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما)(١) .

---

(١) د . محمد حسين الذهبى فى كتابه « التفسير والمفسرون » ج ١ ص ٢٨٠ .

سورة يس

مدخل إلى السورة

سورة يس من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى وهذه السور تنقسم إلى أقسام خمسة بحسب عدد الحروف التى بدئت بها :

القسم الأول : سور بدئت بحرف واحد وهى . ص ، ق ، ن .

القسم الثانى : سور بدئت بحرفين اثنين وهى : طه ، طس ، « حم » . فى سور ست وهى: غافر، فصلت ، الزخرف، الدخان، الجاثيه ،الأحقاف .

القسم الثالث : سور بدئت بأحرف ثلاثة وهى : « ألم » فى سور ست وهى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، « ألر » فى سورة خمس وهى : يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ، إبراهيم ، «طسم» فى سورتين هما : الشعراء ، القصص .

القسم الرابع : سورتان بدئتا بأحرف أربعة وهما : « ألمر » الرعد ، « ألمص » الأعراف .

القسم الخامس : سورتان بدئتا بأحرف خمسة وهما « كهيعص» مريم ، « حم عسق » الشورى .

فيكون مجموع هذه السور التى بدئت بحروف التهجى والتى تباينت فى عدد الحروف التى تكونت منها تسعا وعشرين سورة ولقد اختلفت أقوال العلماء فى معانيها ويمكن إيجاز آرائهم فى رأيين :

الرأى الأول : ذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الله استأثر بها وهى من الأسرار التى لايعلمها سواه ولقد ذهب إلى هذا عبد الله بن عباس فى إحدى

روايتيه فقال : عجزت العلماء عن إدراكها وذهب إلى هذا الشعبى (سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا وإن سرهذا القرآن فواتح السور)(١) .

وذهب إلى هذا مجاهد : (عن سفيان الثورى عن مجاهد : أنه قال : ألم ، حم ، ألمص ، ص ، فواتح افتتح الله بها) (٢).

ولقد ذهب إلى هذا أبو بكر بن العربى قال (ومن الباطل علم الحروف المقطعة فى أوائل السور)(٣) .

ولقد وجهت إلى هذا الرأى اعتراضات منها : أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها وقد أجيب عن ذلك بأن عامة الناس لا يعرفونها وأن الرسول ﷺ والصحابة كانوا يعرفونها .

ولقد وجه اعتراض آخر وهو ما قاله الإمام جلال الدين السيوطى قال (والذى أقوله أنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولا متداولا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبى ﷺ بل تلى « حم » فصلت و « ص » وغيرهما فلم ينكروا ذلك بل صرحوا بالتسليم له فى البلاغة والفصاحة مع تشوفهم إلى عثرة وحرصهم على زلة فدل على أنه كان أمرا معروفا بينهم لا إنكار فيه)(٤) .

---

(١) الاتقان ج٣ ص ٢٤ .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص ٢٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٦ .
(٤) الاتقان ج٣ ص ٣٠ ، ٣١ .

الرأى الثانى :

ذهب أهل هذا الرأى إلى أن أوائل هذه السور لها معنى واختلفوا فيما بينهم فى المعنى المراد منها :

١ — ذهب عبد الرحمن بن أسلم إلى أنها أسماء للسور وذهب غيره إلى ذلك وعضد هؤلاء رأيهم بما ورد فى الصحيحين (أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة : « ألم » السجدة ، وهل أتى على الإنسان)(١) .

وسميت بعض السور بالحروف التى افتتحت بها مثل : طه ، يس، ص .

وإتجاه هؤلاء ضعيف لأن كثيرا من السور صدرت بالحروف المقطعة ومع ذلك لم تسم بها مثل الرعد ، ومريم ، والشورى، والقلم إلى غير ذلك .

٢ — وذهب آخرون إلى أنها أسماء للقرآن من هؤلاء مجاهد فى إحدى رواياته . وقتادة وهذا يرجع إلى الرأى الأول فى ضعفه ولقد عقب عليه الحافظ ابن كثير فقال (ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه إسم من أسماء السورة فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون « ألمص » اسما للقرآن كله لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول قرأت « المص » إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن)(٢).

٣ — ذهب آخرون إلى أن هذه الحروف ذكرت لنعرف بها أوائل السور من هؤلاء ابن جرير . وهذا الرأى ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه هذه الحروف وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة و كتابة .

---

(١) البخارى جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٧ .

٤ — ذهب آخرون إلى أنها اسم من أسماء الله تعالى أو اسم الله الأعظم أو هو قسم أقسم الله به ولقد روى هذا عن ابن عباس فى إحدى الراويات عنه . وهذا ضعيف لأن أسماء الله توقيفيه ولم يرد عن الرسول ﷺ مثل هذا .

٥ — وذهب آخرون إلى أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم وهؤلاء لم يصيبوا .

٦ — ذهب بعض العلماء إلى أن الله تحدى بها المشركين فهذه الحروف من جنس كلامهم الذى ينطقون به ويقدرون على تأليف الكلام منها ومع هذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله وذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة درجة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل كثيرة وفضلا عن ذلك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف يأخذ بأنظار المعرضين إلى أستماع القرآن حين يتلى عليهم فيدعوهم إلى التدبر لأنه يطرق اسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ لم تكن مألوفة لديهم وذلك يلفت أفئدتهم ليتبينوا مايراد منها فيسمعوا حكما وحججاً قد تكون سببا فى هدايتهم واستجابتهم .

ولقد نوه الإمام الحافظ ابن كثير إلى أنه الصواب . ولقد ذهب جلة من العلماء المعاصرين إلى هذا الرأى وجعلوه أقرب الآراء إلى الصواب .

والذى أراه :

أنه ضعيف كغيره من الآراء فبعض السور التى صدرت بهذه الحروف المتقطعة مكى والبعض مدنى كالزهراوين فهذه السور التى بدئت بهذه الحروف كغيرها والتى عرت عنها وصدرت بغيرها فهما متشابهان فى الإعجاز بوجوهه المتباينة ولافرق بين السور التى بدئت بها وبين السور التى بدئت بغيرها ولقد ذهب جماعة مذهبا أراه صائبا وهو أنهم يقولون (لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها الله سبحانه وتعالى عبثا ولاسدى ومن قال من الجهلة إنه

فى القرآن ما هو تعبد لامعنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيراً فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به وإلا وقفنا وقلنا « آمنا به كل من عند ربنا » ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين)(١).

فهذه خلاصة موجزة لأقوال العلماء واتجاهاتهم ومن أراد مزيداً فليرجع إلى مقدمة ابن كثير والاتقان فى علوم القرآن وكذلك البرهان فى علوم القرآن . والله أعلم .

سورة يس

من السور المكية إلا الآية ٤٥ وعدد آياتها ثلاث وثمانون آية . نزلت بعد سورة الجن .

سببها :

قال السيوطى (أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ فى السجدة فيجهر بالقرآن حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا بهم عمى لا يبصرون فجاءوا إلى النبى ﷺ فقالوا ننشدك الله والرحم يا محمد فدعا حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت سورة يس)(٢) .

مناسبة السورة بما قبلها :

انتهت سورة فاطر بالحديث عن الرسالة فالقرشيون كانوا قد بالغوا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٩

(٢) أسباب النزول ص ١٤٥

فى القسم بالله عز وجل لئن جاءهم رسول ليبادرون بطاعته ويكونون أهدى وأطوع من الأمم السابقة فلما جاءهم الرسول محمد ﷺ مازادهم مجيئه إلا نفورا واستكبارا فأبوا رسالته .

ثم لفت انتباههم فى آثار الأمم السابقة فكانوا أشد قوة وأكثر مالا منهم فعاقبهم الله بالهلاك ولو يحاسب الله الناس اقترفوه من خطايا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن أخرهم ليوم القيامة فكان هذا الحديث حديثا عن الرسالة وعلاقة الرسول ﷺ بقومه ثم أقسم الله فى سورة يس على أن الرسول ﷺ من المرسلين وهو على صراط مستقيم .

أهداف السورة :

هذه السورة متعددة الأهداف متباينة الأغراض وهذه الأهداف هى :

• الدعوة إلى التوحيد وإقامة الأدلة على ذلك : وتتمثل فى آيات هى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون) .

الأدلة على التوحيد :

(أ) (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) .

(ب) (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) .

• إثبات الرسالة . ويتمثل هذا فى آيات هى (يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين) .

• إثبات البعث : ويتمثل هذا فى آيات هى .

ا — (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) .

ب — (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) .

حـ —(وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) .

• — الدعوة إلى عبادة الله تعالى : ويتمثل هذا في : (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) .

• الدعوه إلى الأخلاق : ويتمثل ذلك في قوله تعالى (ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين)

• ساقت السورة بعض القصص القرآني . قال تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القريه إذجاءها المرسلون) الخ .

• ساقت السورة بعض مشاهد يوم القيامة للاعتبار : قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ماينظرون إلا صيحةواحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) الخ .

وقال تعالى (هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون . اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانو يكسبون) .

* * *

(يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم) .

المباحث العربية :

« يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين » .

يس : ذهب بعض العلماء إلى أنها اسم للسورة . وعلى ضوء ذلك يجوز فيها الرفع والنصب والجر .

الرفع : على أنها مبتدأ وما بعدها خبر أو هى خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه يس .

النصب : على أنها مفعول لفعل محذوف تقديره إقرأ يس .

الجر : على أنها مقسم بها ودخل عليها حرف الجر .

ومن لم يجعل « يس » وأضرابها إسماً للسوره . وهذا اتجاه المذاهب الأخرى المتباينة .

فليس لها محل من الإعراب . كما لا محل للجملة المبتدأة والمفردات المعدودة .

« والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين » .

توافرت فى تلك الآية أركان القسم : وهى مقسم : بضم أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه .

ومقسم به : وهو كالأول لكن بفتح ثالثه .

ومقسم عليه : وهو كالسابق فى ضبطه . وصيغة قسم وهى الواو .

فالذى أقسم هو الله والمقسم به هو القرآن . ومقسم عليه وهو كون الرسول ﷺ من المرسلين وهو جواب القسم .

ولقد أسند الحكمة للقرآن مع أنه كلام لتضمنه لها أو أنه الناطق بها على سبيل الاستعارة أو أنه قد يكون الأصل: الحكيم قائله فحذف المضاف وهو قائله وأقيم المضاف إليه وهو الحكيم مقامه .

والسر فى القسم من جانب الله تعالى أن محمداً ﷺ من جملة المرسلين. ولم يقل إنك لرسول الله ليشعر القوم بأنه ليس بدعاً عن الرسل فدعوته كدعوتهم متحدين فى مبادئهم نورهم يخرج من مشكاة واحدة .

ولقد تضمنت الآية الثانية ثلاثة مؤكدات : لتكون رداً على منكرى رسالته وهذه شهادة من الله له .

« على صراط مستقيم » الصراط : هو الطريق والمستقيم هو أقرب الطرق الموصلة إلى البغية والدين . والجار والمجرور خبر ثان . لإن . ويجوز أن يكون حالا .

والمعنى : إنك على شريعة شريفة تميزت عن الشرائع السابقة بكمالها .

والتنكير فى صراط مستقيم وذكر الوصف إثر بيان كونه من جملة الرسل يفيد هذا المعنى .

« تنزيل العزيز الرحيم » تنزيل قرىء بالنصب وبالرفع وبالجر فبالنصب على أنه مفعول لفعل مقدر أى والقرآن الحكيم أعنى تنزيل أو أنه منصوب على المدح .

وبالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو. وبالجر على أنه بدل من القرآن أو الصراط .

ولقد أفادت هذه الآية معنى هو أن القرآن منزل من عند الله والسر فى إضافه العزيز الرحيم إلى تنزيل (إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولا

فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل — بفتح السين — ويهينوا المرسل — بكسر السين — وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزا أو يخافوا المرسل — بكسر السين ويكرموا المرسل — بفتح السين — وحينئذ يرحمهم الملك أو نقول المرسل — بفتح السين — يكون معه فى رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزيز والإطلاق يدل على الرحمة) (١)

معنى الآيات :

يقسم الله تعالى بهذين الحرفين « ياسين » قيل معناه ياسيد ويضيف إليه قسما آخر بالقرآن الحكيم وهذا القسم يبين عظم المقسم به . يقسم الله على أن رسوله من جملة المرسلين وكان الخطاب للرسول ﷺ ولم يكن للمنكرين ترفعا بالقسم وبالرسول عليه السلام وبالرساله عن أن تكون موضع جدل أومناقشة فكان القسم على أنه من جملة الرسل وعلى أن رسالته لها طبيعة هى الاستقامه فهى قائمه كحد السيف لااعوجاج فيها ولا التواء ولا ميل ولاانحراف . الحق فيها واضح لاغموض فيه ولا التباس يجده من يطلبه فى يسر وفى دقة . وهذه الرساله تنزيل من العزيز الرحيم .

سلوك قريش قبل الرساله :

(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) .

المباحث العربية :

« لتنذر » متعلق بتنزيل : أى لتنذر بالقرآن العرب وغيرهم غير منذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة فبقوا غافلين .

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ٥٨ ، ٥٩

أو هو متعلق « بإنك لمن المرسلين » أى إنك مرسل « لتنذر قوما » الخ . ولقد ذكر ذلك ليلفت انتباههم إلى أن الله أنعم عليهم نعمة لم يحظ بها آباؤهم فبدلا من تصديق هذا الرسول كذبوه وأعرضوا عنه فقال الله:

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون »

هذا جواب قسم محذوف وهذا بيان لجزائهم والمراد بالقول إما قول الله تعالى لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين)(١).

وإما أن يكون المراد أنه سبق فى علمه أن هذا يؤمن وهذا لا يؤمن. ويفسر هذا قوله فى عجز الآية « فهم لا يؤمنون ».

معنى الآيتين :

لتنذر يا محمد بهذا القران العرب الذين لم يسبق لآبائهم قبل ذلك أن أرسل الله إليهم رسولا . فهم غافلون فالغفلة أشد ما يفسد القلب لأن القلب الغافل معطل عن التفكير تمر به الدلائل التى تهديه فلا يهتف بالقبول ولا ينبض بالعرفان .

ولقد قضى الله فى أمر هـــذا العقل وأضرابه أنهم لا يؤمنون ولا ينخرطون فى سمط المسلمين .

(إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)

---

(١) ص آية ٨٥

سبب نزول الآيات :

(أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال « كان رســـول الله ﷺ يقرأ السجدة فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا بهم عمى لا يبصرون فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا ننشدك الله والرحم يامحمد فدعا حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت « يس . والقرآن الحكيم » إلى قوله تعالى « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وســـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »)(١).

المباحث العربية :

يقال فى هذه الآية : إن فيها تمثيلا مقررا لتصميمهم على الكفر وعدم الالتفات إلى منهج الله القويم .

« إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون »

إنا صيرنا فى رقابهم قيودا من أسفل الرقاب تربطها بالأذقان فالرءوس مرفوعة وكأنها سمرت فى أجسادهم فلا يستطيعون تحريكها إلى أى جهة من الجهات ليلتفتوا نحو الحق ولا يصغون لندائه .

والأغلال : جمع غل وهو القيد .

ومقمحون : جمع مقمح وهو اسم مفعول من الفعل أقمح ومعناه (رفع الرأس وغض البصر يقال أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه)(٢) والفاء التى دخلت على ضمير الجمع سببية .

---

(١) أسباب النزول ص١٤٤، ١٤٥   (٢) مختار الصحاح ص٨٦

« وجعلنا من بين أيديهم سداً ومـــن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

هذه الآية مكملة للآية السابقة : فلما كانت رقابهم قد غلت مع أذقانهم فلا يستطيعون النظر جعل مع هـــذا سداً عظيما أمامهم وخلفهم فغطى أبصارهم فبسبب ذلك لا يبصرون .

قرىء سداً بضم السين وهى لغة فيه ولقد قيل إن كان بالضم فهو من خلق الله وإن كان بالفتح فهو من فعل البشر وقرىء فأعشيناهم بالعين من العشا مقصور وهو الذى لا يبصر بالليل والقراءة الأولى أبلـغ لأنها تنفى الرؤية عنهم فى كل وقت .

« وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »

المباحث العربية :

هذا استئناف سيق لبيان حال هؤلاء القوم — أى أهل مكة — مع رسول الله ﷺ فجعل فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان وجعل سدا أمامهم وسدا خلفهم . ومن كان هذا أمره يستوى معه الإنذار وعـدم الإنذار وهـذا ماذكره الله تعالى فى هذه الآية « وسواء على الابتداء وجملة أأنذرتهم أم لم تنذرهم فى موضع الفاعل سدت مسد الخبر والتقدير يستوى عندهم الإنذار وتركه وهذا محمول على المعنى ويجوز أن تكون هذه الجملة فى موضع الابتداء وسواء خبر مقدم وأم حرف عطف وأتت للتسوية بين الإنذار وعدمه وقوله « لا يؤمنون » استئناف مؤكد لما قبله أو حال مؤكدة له .

معنى الآيات :

إن أيدى المكذبين مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم موضـوعة تحت أذقانهم ومـن ثم فرءوسهم مـرفوعة قسرا لاينظرون إلى الأمام

ولا يستطيعون حرية النظر فهم على حالهم هذا حيل بينهم وبين الهدى والحق . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، لقد قضى الله فيهم بأمره بما علمه من طبيعة قلوبهم التى لا ينفذ إليها الإيمان. ولا ينفع معها الإيمان ولا تجدى فيها المواعظ قلوبهم غير مهيأة للإيمان مشدودة عنه محال بينه وبينها بالسدود فالإنذار يوقظ القلوب الحية .

النفوس الجديرة بالدعوة :

(إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم) .

مناسبة الآية بما قبلها :

لما أبت نفوس أهل مكة منهج الله وآثرت عبادة الأوثان على عبادة الرحمن أرشده الله تعالى إلى الأرض الطيبة التى يغرس فيها دعوته وهى القلوب الواعية التى تتبع القران وتخشى الرحمن فقال « إنما تنذر من اتبع الذكر » الخ .

المباحث العربية :

هذا الأسلوب أسلوب قصر وهو خاص. والأسلوب الذى سبقه أسلوب عام. وهو « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » ويجمع بين الأسلوبين بأن الآية العامة معناها أنه ينذر سواء كان الإنذار مفيدا أم غير مفيد أما الآية الخاصة فمعناها أن الإنذار فيها مفيد للطائفة التى تتبع الذكر وتخشى الرحمن

« بالغيب » هذه الكلمة تدل على إيمان من اتبع الذكر لأن هؤلاء لم يروا الله تعالى وجزاء هؤلاء أن يبشرهم الرسول ﷺ بمغفرة لذنوبهم ويخبرهم بجزاء أعمالهم. والمراد بالأجر الجنة. ولقد وصفه الله تعالى بالكريم حتى لا يظن أن الأجر على قدر العمل بل يزاد فيه لتكون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

والمراد بالذكر القرآن وبالغيب جار ومجرور حال من الفاعل فى خشى أو حال من المفعول وهو الرحمن . والفاء لترتيب الأمر بالبشارة على ماقبلها من اتباع الذكر والخشية . والتنكير فى مغفرة وأجر يشعر بسعة رحمة الله تعالى فهو يفيد الكثرة .

معنى الآيــــة :

إنما ينفع إنذارك يامحمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه وخشى الرحمن فكأنه هو وحده الذى وجه إليه الانذار وكأن الرسول ﷺ خصه به وإن كان قد عم .

ومن كان هذا ديدنه يستحق التبشير بعد انتفاعه بالانذار . يبشره بمغفرة لما يقع منه من خطايا غير مصر عليها ويخبره بأجر كريم على خشيته للرحمن .

حديث موجز عن البعث :

(إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين) .

سبب نزول الآية :

(عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية فقال: صلى الله عليه وسلم إن آثاركم تكتب فلا تنقلوا)(١)

---

(١) أسباب النزول صـ ١٤٥

المباحث العربية :

هـذا استئناف سيق لبيان ماينطوى عليه الإنذار والتبشير انطواء إجمالياً وهو إحياء الموتى وتسجيل ماقدموا وأن كل شيء أحصى فى علم الله القديم . ولقد أجمل الله الإنذار والتبشير فى هذه العبارات لأنه يندرج تحتها كل شيء من إيمان وعمل . ألا يدل على هذا قوله « ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين » .

وقدم الإحياء على الكتابة مع أنها سابقة عليه لأن الإحياء لايقدر عليه سوى الذى بدأ الخلق وتقديمه فيه إشعار بعظم أمره .

« إنا نحن نحيي الموتى » للبعث .

« ونكتب » فى صحف الملائكة . وأسند الكتابة إليه مع أن الملائكة هى التى تكتب : لأنه الآمر بها .

« ماقدموا » فى حياتهم من خير أو شر .

« وآثارهم » ماسنوه من عمل صالح وعمل به من بعدهم كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو وقف لله حبسوه أو مسجد شيدوه أو غير ذلك من أعمال الخير . أو ماسنوه من شر وعمل به من بعدهم .

ويفسر هذا قوله صلى الله عليه وسلم : (من سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزاهم شيء)(١)

(١) صحيح مسلم بشرح النووى حـ١٦ ص ٢٢٦

والمراد بالإمام المبين . علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

معنى الآية :

إنا نحن نبعث الموتى ونعيدهم يوم القيامة فكتب ماقدمته أيديهم وكل ماخلفته أعمالهم من آثار وهذا مسجل فى صحف محفوظة مع علمنا بما قدموا .

ضرب الأمثال للاعتبار :

(واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) .

هذا أمر من الله لرسوله بأن يضرب مثلا لقومه بأصحاب أنطاكية فكانوا عبدة للأصنام والأوثان فأرسل الله إليهم اثنين فكذبوهما فآزرهما بثالث وأعلنوا رسالتهم على أهلها .

المباحث العربية :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » .

الضرب يكون بمعنى اصطدام جسم بآخر بعنف ويكون بمعنى السير وعند ذلك يكون مقرونا بحرف الجر « فى » كقوله تعالى « وإذا ضربتم فى الأرض » ويكون المعنى مثل مثلا وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد .

يقول الإمام الرازى (وفيه وجهان والترتيب ظاهر : الوجه الأول : هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلا . والثانى : أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلا أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية

وعلى الأول نقول لما قال الله « إنك لمن المرسلين » وقال « لتنذر » قال قل لهم ما كنت بدعا من الرسل بل قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذركم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة . وعلى الثاني نقول لما قال الله تعالى إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن . قال النبي عليه الصلاة والسلام فلا تيأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا أي مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء وأنت جئتهم واحدا وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاءوا قرية وأنت بعثت إلى العالم)(١)

فاللفظ الوارد في هـــذه الآية يحتمل الوجهين لا أحدهما . وضرب المثل إما أن يستعمل في حالة فريدة ويراد منه التطبيق كما في قوله تعالى : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا »(٢)

وإما أن يستعمل في ذكر موطن من المواطن ويراد منه إبراز الأمور الغريبة دون النظر إلى التطبيق كما في قوله تعـــالى : « وضربنا لكم الأمثال(٣) » .

وإما أن يستعمل في طرفين متناقضين لإبراز الغرابة في الطرفين كرسول ومرسل إليهم كما في هذه الآية « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية »

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ٦٥
(٢) التحريم آية ١٢
(٣) ابراهيم آية ٤٥

فإنه جعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والإصرار على تكذيب الرسل وجعل المرسلين مثلا له فإنهم أوذوا وصابروا وصبروا ويكون فى هذا تسلية له عليه السلام .

ومثلا : مفعول أول وأصحاب مفعول ثانى . وإذ ظرف زمان للماضى .

والمراد بالقرية (أنطاكية . وكان بها ملك يقال له أنطيخس بن أنطيخس بن أنطيخس)(١) .

ولقد ساق ابن كثير هذا الرأى عن ابن عباس .

« إذ جاء المرسلون » بدل اشتمال من أصحاب القرية . أى وقت أن أتاها المرسلون .

رسل القرية :

(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) « إذ » بدل من إذ السابقة و « أرسلنا » الذى أرسل هؤلاء الرسل نبى الله عيسى عليه وعلى رسولنا السلام ونسب الله إرسالهما إليه مع أنهم رسل عيسى لأن الإرسال كان بأمره . وزعم القرطبى أنهم كانوا رسل الله من غير واسطة عيسى عليه السلام . وهذا ضعيف لأن العادة جرت مع الرسل أن لا يرسل الله رسولين أو ثلاثة إلى مكان واحد فى وقت واحد .

ولقد ساق الإمام الرازى سببا فى بعث عيسى أكثر من رسول والرسول ﷺ كان يرسل إلى الملوك واحدا فقط فقال (الرسول ﷺ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٤

بعث إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين تقول النبي ﷺ بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فإن خبر الواحد فى الفروع مقبول وأماهما فبعثا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضا ولا ثلاثة)(١) .

« إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززنا بثالث اختلف فى تعيينهم وفى أسمائهم فقال وهب بن منبه (هم صادق وصدوق وشلوم)(٢) .

وذهب شعيب الجبائى إلى أنهم (شمعون ويوحنا والثالث بولص)(٣) .

« فعززنا » بالتشديد وقرىء بالتخفيف أى قوينا .

« إنا إليكم مرسلون » ، ورد الكلام موكدا لسبق الإنكار فتكذيب الاثنين تكذيب للثالث لاتحاد دعوتهم . والجار والمجرور متعلق باسم المفعول . فيكون المعنى :

أرسل الله رسولين إلى القرية فكذبهما أهلها فشد الله أزرهما وقوى الاثنين بثالث فدعا الرسل أهل القرية إلى رسالتهم .

السر فى عدم ذكر أسماء الرسل :

تغاضت الآيات عن ذكر أسماء الرسل والقرية لتبين أن العبرة فى السلوك وليس فى الأسماء وهذا هو ديدن القرآن .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٦٦
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٥٤
(٣) نفس المرجع السابق .

معنى الآيات :

واذكر يا محمد لقومك الصادين عن منهج الله قصة أصحاب أنطاكية التى هى فى الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب « إذ جاءها المرسلون » أى وقت أرسلنا إليهم رسلنا تترى بعثنا إليهم اثنين ثم عززناهما بثالث فقالوا للقوم إنا إليكم مرسلون .

(قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) .

لقد أثار القوم شبهتين ليصدوا بها دعوة الرسل وهما :

أولا : كونهم بشرا وإن هذه الشبهة يرددها أعداء الله فى كل عصر لرسلهم . قال تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد)(1) .

ولقد ساق هؤلاء هذه الشبهة على أنها دليل لهم لأنهم لم يعتقدوا فى الله الاختيار فقالوا لقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان وهذا يدل على ضحولة فكرهم وضآلة عقولهم .

« وما أنزل الرحمن من شىء » .

وأفادت هذه الجملة أمراً هو :

(1) التغابن آية ٥ — ٦

تأكيد كلامهم السابق ويكون المعنى ما أنتم إلا بشر وما أنزل الله عليكم شيئا حتى تدعوا أنكم رسله . ولقد بالغوا فى تكذيب الرسل بأمرين :

١ — وقوع النكرة فى سياق النفى فأفاد العموم .

٢ — دخول حرف الجر الزائد على النكرة مما يفيد التوكيد .

« إن أنتم إلا تكذبون » .

هذه جملة أتت مصرحة بالتكذيب وهى أسلوب حصر وإن بمعنى ما فيكون الحصر بإن وإلا . والفعل المضارع يدل على تجدد الكذب فى زعمهم .

ومعنى هذه الجمله ومؤكداتها : دعا رسل الله القوم إلى دعوتهم ففى ظلالها يسعد الإنسان وفى كنفها يحيا فى إطمئنان ويصل عن سبيلها بروحه إلى الرحمن فرغب القوم عنهم وأثاروا الرهج فى وجوههم . وعارضوهم بدليل عقلى طفولى ينبىء عن جهلهم وانحطاط فكرهم فقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون » .

درء هذه الشبهة :

« قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين » .

لقد أجاب الرسل إجابة لها مغزاها من وجهين :

الوجه الأول : أنهم استشهدوا بالله تعالى وكفى به شهيداً .

الوجه الثانى : إن استشهادهم بعلم الله تعالى جرى مجرى القسم وهذه أدلة فى الرد على شبهة القوم .

ولما أنكر القوم رسالة الرسل حين دعوهم بقولهم سابقا « إنا إليكم مرسلون » أتى الأسلوب مراعيـــا مقتضى حال المنكرين بتضمنه مؤكدات عدة .

١ — القسم ٢ — إن ٣ — اللام ٤ — إسمية الجملة

والجار والمجرور متعلق باسم المفعول .

« وما علينا إلا البلاغ المبين » .

هذا حصر يبين أن رسل الله لم يقسروا الخلق على منهج الله الخالق . فما عليهم إلا البلاغ الظاهر لرسالتهم .

فيكون معنى الآيتين : إن الله يعلم إنا أرسلنا من قبله رحمة لكم فان صدقتم عن تلك الرسالة فإن وظيفتنا التبليغ الواضح وأنتم أحرار فيما تتخذونه لأنفسكم من سلوك ولكن دعوة الله لم تجد فى هذه القرية آذانا صاغية أو قلوبا واعية بل أثاروا شبهة أخرى .

الشبهة الثانية : قالوا إن الرسل أتوا ومعهم الشؤم : قال تعالى حاكيا عنهم « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » .

يقول صاحب الفتوحات الإلهيه (أصل التطير التفاؤل بالطير فإنهم كانوا يزعمون أن الطائر السانح(١) سبب للخير والبارح سبب للشر ثم استعمل فى كل ما يتشاءم به)(٢) .

وهذا السلوك ديدن الكفرة على مر العصور قال تعالى عن قوم

---

(١) السانح : هو الذى جرى على يمينك إلى يسارك والبارح عكسه .
(٢) الفتوحات الإلهية حـ٣ ص٥٠٧

فرعون (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله)(١) .

وقال عن قوم صالح (قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون)(٢) .

قوله « لئن لم تنتهوا لنرجمنكم » .

اللام الأولى لام القسم دخلت على إن الشرطية واللام الثانية لام التوكيد دخلت على جواب الشرط وحذف متعلق الرجم ليعم الرجم بالشتم والحجارة والقتل .

« وليمسنكم منا عذاب أليم » أى وليصيبنكم عذاب النار وهو أشد إيلاما .

معنى الآيتين :

لقد رد الباطل على الحق ردا وارداً من قبل الجهلة الذين لم يعملوا عقولهم فقالوا إنا تشاءمنا منكم ونتوقع الشر فى دعوتكم . ولقد تشاءم هؤلاء لأن هناك جنسا من البشر يسعد بظلام الباطل فيعملون فى ديجوره كارهين هدى الله تعالى . ولما عجز القوم عن مواجهة الحجة بالحجة أسفروا عن غشمهم وأطلقوا تهديدهم على الدعاة وواجهوا الدعوة الهادئة بالبغى والانتقام « لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » .

---

(١) الأعراف آية ١٣١
(٢) النمل آية ٤٧

درء هذه الشبهة :

(قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) .

المباحث العربية :

هذا رد من الرسل « قالوا طائركم معكم » أى سبب شؤمكم ملازمكم ونابع من ذواتكم . « أئن ذكرتم » همزة الاستفهام دخلت على إن الشرطيه والفعل الماضى المبنى للمجهول والمبنى على الفتح أو المبنى على السكون فى محل جزم وجواب الشرط محذوف تقديره أئن ذكرتم تتطيرون وتكفرون .

فإذا اجتمع شرط واستفهام يجاب على الاستفهام وقيل يجاب على الشرط أئن ذكرتم تتطيروا .

« بل أنتم قوم مسرفون » .

هذا إضراب من كون التذكير سببا للشؤم إلى أنهم متجاوزون الحدود بالشرك .

معنى الآية :

إن سبب شؤمكم فى أعناقكم وأن حظكم ونصيبكم من خير أو شر لا يأتيكم من خارج نفوسكم إنما هو ذاتى منكم والتشاؤم بالوجوه أو بالأمكنة أو بالألفاظ خرافة لا أساس لها فشؤمكم ملازم لكم بل أنتم متجاوزون الحدود فى التفكير والتقدير ومقابلة الهدى بالوعيد والرجم والتعذيب أسلوب الجهلاء وليس العقلاء .

صوت من القوم يدعوهم للحق :

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إنى إذاً لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون) .

بينت هذه الآيات حال القلوب المغلقة وجهلها وسذاجتها . وبينت أن من بين القوم صاحب فطرة سليمة استجابت لدعوة الحق تمثل فيها الزهد والصدق والبساطة وحرارة الإيمان واستقامة الإدراك .

المباحث العربية

«وجاء من أقصى المدينة» قدم الوصف وهو من أقصى على الموصوف وهو الرجل لأمرين :

١ — أن دعوة الرسل دوت فى المدينة حتى عرفها القاصى والدانى فبلغت الأماكن القصوى .

٢ — أن الذى يعرف الحق لا يسكت عن إظهاره ولا يقبع فى داره يرى الظلال يعم والجحود والفجور ينتشران . فلقد دفع الحق الرجل لأن يهب من أقصى المدينة ليدعو للحق وهو الذى آمن من قبل وذاق حلاوة الإيمان .

ولقد عبر الله تعالى عن القرية هنا بالمدينة إشارة لكبرها واتساعها ولقد سبق اسمها .

« رجل يسعى » نكر الرجل مع أنه معرفة لأمرين :

أولا : أن يكون تعظيما لشأنه وتفخيما لأمره .

ثانياً : أن دعوة هؤلاء الرسل بلغت في ظهورها ووضوحها حداً آمن بهم من لا يعرفونه ، وهذا الرجل هو حبيب النجار قال (ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه — إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى . أي لينصرهم من قومه — قالوا وهو حبيب — وكان يعمل الجرير — وهو الحبال — وكان رجلا سقيما . قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة . يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة .

وقال الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز : كان اسمه حبيب بن مري. وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال : اسم صاحب يس حبيب النجار فقتله قومه . وقال عمر بن الحكم كان اسكافا ، وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك)(١) .

ولقد وصفه الله تعالى بكونه يسعى والسعي هو اشتداد العدو . لأن الذي حمله على السعي عليه بأن القوم سيقتلون رسل الله .

« قال يا قوم اتبعوا المرسلين » .

هذا استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعيا فكأنه قيل ماذا قال عند مجيئه ؟ قال يا قوم . وقال يا قوم لأنه يشفق عليهم وإضافتهم إلى نفسه يوحي بأنه لا يريد بهم إلا الخير .

« اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » .

كرر الدعوة إلى الاتباع للتوكيد : وهذا دليل أقامه على صدق رسالة الرسل . أي سيروا على دربهم فإنهم لا يسألونكم على دعوتهم أجرا فالذى

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٦٦

لا يطلب أجرا ولا يبتغى مغنما صادق فى دعوته فـا الذى يحمله على هـذا العناء من نشر دعوته وعزوف قومه إلا أنه مكلف من قبل الله سبحانه وتعالى ، ونـكر أجراً للدلالة على أنهم لا يطلبون أدنى شىء .

« ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون » .

العبادة (غايه التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى والعبادة ضربان : عبادة بالتسخير . وعباده بالاختيار وهى لذوى النطق)(١) .

وفطر معناه (إيجاد الشىء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال)(٢)

وقوله « ومالى لا أعبد » الخ .

هذا إخبار عن قيل الرجل تلطف بهم فى معرض النصح فساق لهم دليلا على البعث وهو قياس الإعاده على بدء الخلق وجعل الخلق ابتداء على نفسه ليلزمهم توحيد الله وعبادته لأن من خلق زيداً يجب على عمرو عبادته لأنه يكون كامل القـــدرة شامل العلم واجب الوجود فيكون مستحقا للعباده . وأسند الرجوع إليهم ولم يقل وإليه أرجع لأنه يريد تهديدهم وتخويفهم بلقائه فيـكون المعنى :

واجه الرجل القوم متسائلا تساؤل الفطرة المعترفة بالخالق مصدر وجودها فيقول ومالى مانع ذاتى من أن أعبد الذى خلقنى وبرأنى. ففطرته مجذوبة إلى فاطرها فلا تنحرف عنه إلا بدافع خارجى عنها . والأولى الاتجاه إلى الله الذى إليه المصير والمرجع .

« أأتخذ من دونه من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إنى إذا لفى ضلال مبين » .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣١٩

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٢

المباحث العربيه :

الاستفهام هنا بمعنى النفى أى لا أتخذ . « من دونه » يتعلق بأتخذ إن كان متعديا لواحد . وهو آلهة أو أنه مفعول ثان قدم على الأول ويكون الفعل متعديا لمفعولين . أو يعرب على أنه متعلق بمحذوف حال من آلهة.

« إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا :

الجملة الشرطية فيها وجهان :

الأول : أنها صفة لآلهة فهى فى محل نصب والثانى : يجوز أن تكون مستأنفه سيقت لتعليل عدم اتخاذ الآلهة . والجملتان المنفيتان صفتان لآلهـة .

« إنى إذاً » التنوين عوض عن جملة محذوفة تقديرها . إن عبدت غير الله تعالى ولقد أكدت الجملة بمؤكدات ثلاثة إن واسمية الجملة واللام .

فيكون المعنى :

لا أتخذ غير الله آلهة إن أصابنى بضر على عبادة هذه الآلهة لا تنفعنى ولا تدرأ شفاعتهم عنى شيئا فإن عبدتها أكون مغمورا فى الجهالة أو مآلى إلى الهلاك وهذا ظاهر بين لا يخفى على عاقل .

« إنى امنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون. بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » .

فى المخاطب بالآية الأولى قولان : قيل الرسل وقيل القوم . والراجح عندى أن المخاطب هم القوم وليس الرسل لأنه حين انتقل بهم من الدعوة الهادئة لم تؤت أكلها انتقل إلى الدعوة التى تنبىء عن التصلب فى الدين من أجل الله فصاح فيهم قائلا « إنى آمنت بربكم فاسمعون » فقتلوه قيـل له « ادخل الجنة » .

قال : « آمنت بربكم » ولم يقل آمنت بربى (فيه بيان للتوحيد وذلك لأنه لما قال « أعبد الذى فطرنى ثم قال آمنت بربكم فهم أنه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم بخلاف ما لو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضا آمنت بربى ومثل هـــذا قوله « الله ربنا وربكم)(١) .

وإذا كان الخطاب للرسل فيكون معنى « آمنت بربكم » أى قبلت قولكم وآمنت بالرب الذى دعوتمونى إليه « فاسمعون » بكسر النون وهى للوقاية حذفت بعدها ياء الإضافة والكسرة دليل عليها . وبعد هذا الأمر منه لقومه أجابوه بالقتل فقتل ومات قال قتادة : أخذوا يرجمونه بالحجارة وقال وهب بن منبه وأصحاب عبد الله بن مسعود وطئوه بأقدامهم حتى مات .

« قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون » .

أسند الفعل للمجهول ليدل على الكثرة الكاثرة التى تزفه إلى الجنة فهو كألهنأ يقول له كل ملك وكل صالح ادخل الجنة خالدا فيها ولم يقل له لأن الهدف من السياق بيان المقول له لظهوره ووضوحه فى السياق . لأن الحديث عنه . والجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفه جىء بها إجابة عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه فقيل ادخل الجنه .

« بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » .

يجوز فى ماأن تكون اسم موصول أى بالذى غفر لى ربى . ويجوز أن تكون مصدرية ويكون المعنى : يا ليت قومى يعلمون بمغفرة الله لى . والمكرم ضد المهان . والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٧٣

وهذا القول منه بعد موته يبين أنه نصحهم حيا وميتا .

معنى الآيات :

ألقى الرجل الواثق المطمئن كلمة الإيمان وجهر بها متبعا صوت الفطرة قاذفا بها فى وجوه صناديد الكفر فقابلوا صيحة الإيمان بالجهل والقوة دون العقل والفكر . فقتلوا الرجل ولم تصرح الآيات بذلك بل يؤخذ من المعانى الثانوية للآيات .

ثم أسدل الستار على مادار بينه وبين قومه فى الدنيا ثم انتقلت الآيات لتتحدث عن ثمرة هذا الجهاد باللسان وبالنفس وعن استشهاده . فقيل له بعد موته وبعد انتقاله من عالم الفناء إلى عالم البقاء : ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعرفون ويدركون ما أنا فيه من النعيم . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين .

ثمرة الصدف عن رسالة الرسل :

(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون . يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) .

« وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين » .

ما نافية والضميران الغائبان يعودان على الرجل الذى سبق ذكر اسمه ومن بعده أى من بعد قتله . « من جند » من حرف جر زائد وجند مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد وجند معناه الأعوان والمراد بهم الملائكة « وما كنا منزلين » هذه الجملة مستأنفة تعليلية لما قبلها ولقد أفادت

هذه الجملة فائدة زائدة على فائدة قوله تعالى « وما أنزلنا على قومه من بعده»
قال الإمام الفخر (أية فائدة فيه مع أن قوله « وما أنزلنا » يستلزم أنه
لا يكون من المنزلين نقول قوله وما كنا أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل
لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال)(١) .

أو يقال « وما أنزلنا » فى هذه الواقعة على قومه من جند وما كنا
منزلين فى غيرها فإن اعترض على هذا بأن الله أنزل الملائكة فى غزوة
بدر والخندق يكون الجواب : هذا النزول كان تعظيما لرسول الله ﷺ
وإلا كان حركة ريشة من جناح جبريل عليه السلام كافية فى استئصال
المشركين . « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون » « إن » بمعنى
ما النافية ويجوز فى كان أن تكون ناقصة فيكون الخبر صيحة فتكون
منصوبة ويجوز أن تكون تامة وصيحة بالرفع بدل من الفاعل الضمير
«هى» و «واحدة» تأكيد لصيحة وهذا التوكيد يفيد زيادة هيونة الأمر
عند الله « فإذا هم خامدون » انفاء وإذا الفجائية أفادتا سرعة الهلاك
وشبهوا بالنار الخامدة إشارة إلى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة
والميت كالرماد .

« يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

يحتمل أن يكون هذا من كلام الملائكة ويحتمل أن يكون من كلام
المؤمنين . والمنادى هنا حسرة ويكون المعنى يا حسرة احضرى فهذا
أوانك ونداؤها مجاز والحسرة الغم على أمر فائت ونكرت للتكثير
والتهويل وأل فى العباد يحتمل أن تكون للعهد والمعهود هم قوم حبيب
النجار الهالكون .

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ٧٥

ويحتمل أن تكون للجنس أى جنس الكفار والمشركين . وجملة « ما يأتيهم » إلخ مستأنفه مسوقة لبيان سبب الحسرة على العباد وفى نفس الوقت تسلية للرسول ﷺ ، ومن زائدة أتت للتوكيد والتعميم أى لم يرسل الله رسولا إلى قومه إلا استهزءوا به أى سخروا منه وجحدوا رسالته .

معنى الآيات :

لما دعاهم الرجل إلى اتباع الرسل وأعلن إيمانه لهم وساق قصة إيمانه فوثبوا عليه وقتلوه أتت هذه الآيات تبين حقارتهم وضآلتهم وصغارهم . فهم ليسوا أهلا لأن يرسل الله إليهم جنودا من عنده تبيدهم . بل كان هلاكهم بزقة أى صيحة صاحها فيهم جبريل عليه السلام فأخمدهم وأهلكهم وفسدت حياتهم ولم تطل الآيات فى الحديث عن مصارع القوم تحقيراً لهم وأسدلت الستار على مشهدهم البائس المهين .

فليتحسر المتحسرون على العباد الذين صدفوا عن دعوة الرسل وسخروا منهم وهذا ديدن معظم العباد حين تأتيهم الرسل لتخرجهم من الظلمات إلى النور .

لفت الأنظار إلى العبرة من الأمم الغابرة :

(ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ، وإن كل لما جميع لدينا محضرون) .

المباحث العربية :

الاستفهام للتقرير و « يروا » يعلموا فهى العلمية ، وواو الجماعة تعود على أهل مكة وهم المخاطبون . و « كم أهلكنا » خبرية بمعنى كثيراً والعامل

فيها أهلكنا فهى معمولة لأنها تعلق ماقبلها وهو الفعل يروا عن العمل فيها لأن أصلها الاستفهام والاستفهام له الصدارة .

و « القرون » جمع قرن ويطلق على الجيل من الناس وعلى المدة الزمنية التى تمر عليهم . فقيل ثمانون سنة وقيل سبعون يقول صاحب المصباح المنير (والقرن أيضا الجيل من الناس قيل ثمانون سنة وقيل سبعون وقال الزجاج الذى عندى والله أعلم أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبى أو طبقة من أهل العلم سواء قلت السنون أو كثرت قال والدليل على ذلك قوله عليه السلام « خير القرون قرنى يعنى أصحابه ثم الذين يلونهم يعنى التابعون ثم الذين يلونهم »(١) أى الذين يأخذون عن التابعين)(٢) .

والمراد بالقرون هنا الأمم التى أهلكها الله والضمير فى أنهم ضمير جمع العقلاء المقترن بأداة التوكيد فإنه يعود على القرون . والضمير الذى دخل عليه حرف الجر إلى يعود على أهل مكة التى تتحدث عنهم الآية « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » « إن » إما أنها إن المخففة من الثقيلة فتكون للتوكيد واللام فى لما فارقة بينها وبين النافية وما زائدة لتوكيد المعنى مع إن والقراءة حينئذ بتخفيف لما وليس بالتشديد . وإما أنها « إن » بمعنى النافية . ولما بمعنى أداة الاستثناء إلا وتكون القراءة بالتشديد ويكون الأسلوب أسلوب حصر(٣) .

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى جـ ٥ ص ١

(٢) المصباح المنير ص ٥٠٠

(٣) انظر مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٧٧

معنى الآيات :

من طباع الحيوان والطير : أن الواحد منها حينما يرى الفرد من بنى جنسه يصرع ويموت يتألم ويرجف فؤاده وبعضها يموت حسرة عليه كالببغاء ، فأهل مكة وصلوا بانحطاطهم دركا أسفل من الحيوان فتحدث القرآن عنهم فقال ألم يتعظ أهل مكة بالأمم الغابرة التى كفرت برسالات ربها وأعرضت عن هديها وآذوا الرسل ونكلوا بهم فاستأصل الله شأفتهم وقطع دابرهم فليس لهم أوبة إلى الحياة فيلتقون بأهل مكة بل أخرسهم وسكنت حركاتهم ولن يدوم هذا السكون فى باطن المعمورة بل سيخرجون من باطنها عند النفخة الثانية فيقومون لرب العالمين للحساب .

آيات البعث :

الآية الأولى : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) .

المباحث العربية :

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها الآية : لها معان متعددة : هى المعجزة — العلامة — العبرة — الأمر العجيب — الجماعة — الدليل ، والمراد بها هنا الدليل أو العلامة ، وتعرب على أنها خبر مقدم وقدم على المبتدأ للإهتمام به ، ونكرت للتفخيم والتعظيم ، ولهم متعلق بها والأرض مبتدأ مؤخر والميتة صفة لها ، والمراد منها أن الأرض عارية عن الحياة أى لانبات فيها ، وجملة أحيينا مستأنفه لبيان كيفية كونها آية ، ويجوز

أن تكون آية مبتدأ ولهم خبره . والأرض الميتة مبتدأ وخبره جملة أحييناها . وجملة الأرض الميتة أحييناها مفسرة لآية ولقد خصص الله لهم — أي أهل مكة — الأرض مع أنها لهم ولغيرهم لأن الأرض آية للمشركين أما المؤمنون فهم مؤمنون دون دليل أو نظر إلى الأرض .

« وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » نكر حباً ليفيد العموم والشمول وهذه الجملة أفادت معنى زائدا عن قوله « أحييناها » لأن الإحياء فى الآية إخراج النبات ونموه .

وإخراج الحب من هذه النباتات إحياء تام . وتقديم الجار والمجرور على يأكلون للتعظيم وفيه اشارة إلى التأمل فى هذا الحب .

« وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

عبر بالجعل دون الخلق لأن يد الإنسان تدخل فى تنسيق النخيل والأعناب وتؤبر النخيل .

ولقد ذكر الإمام الفخر سبب تخصيص النخيل والأعناب دون سائر أشجار الفواكه الأخرى فقال (خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة وهى فيها أتم . لأن التمر والعنب قوت وفاكهة ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعا فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة)(١) .

وأقول : زيادة على ما ساقه إمامنا الفخر أنه خص النخيل والأعناب بالذكر لأنهما منتشران فى جزيرة العرب أكثر من غيرهما .

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ صـ ٧٩

ولقد ذكر الله النخيل والأعناب دون التمر والكرم لأن المقصود بيان الجنات والجنات تكون من الشجر . وذكر النخيل لأن له فوائد جمة فينتفع الإنسان بكل جزء من أجزائه ألا ترى أن الرسول ﷺ شبهها بالمسلم فقال (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثونى ما هى فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبد الله ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هى يارسول الله ؟ قال : فقال هى النخلة قال فذكرت ذلك لعمر قال لأن تكون قلت هى النخلة أحب إلى من كذ وكذا)(١).

« وفجرنا فيها من العيون » :

التفجير فى اللغة : الشق وفيه قراءتان الأولى بالتشديد وهى تدل على الكثرة التى تقابل الجمع فى العيون والثانية بالتخفيف وهى تقابل التبعيض الذى تدل عليه من .

« ليأكلوا من ثمره » الضمير فى ثمره إما أن يعود على كل ما ذكر من النخيل والأعناب وتفجير العيون . ويكون ليأكلوا متعلقا بجعلنا وإما أن يعود على الله تعالى . وهذا ضعيف لأنه لو يعود على الله تعالى لأتى بضمير يواكب السياق مثل « ليأكلوا من ثمرنا .

والفرق بين قوله «فمنه يأكلون» وقوله «ليأكلوا من ثمره» قال الإمام الفخر الرازى (قال عند ذكر الحب : « فمنه يأكلون » أى هم آكلوه وأما الثمار ليست كذلك . فكأنه تعالى قال إن كنا ما أخرجناها كانوا يبغون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها)(٢) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى حـ ١٧ ص ١٥٣

(٢) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ٧٨ ، ٧٩

«وما عملته أيديهم أفلا يشكرون»:

«ما» فيها أربعة أوجه (أحدها أنها موصولة أى ومن الذى عملته أيديهم من الغرس والمعالجة وفيه تجوز على هذا. والثانى: أنها نافية أى لم يعملوه هم بل الفاعل هو الله تعالى. الثالث: أنها نكرة موصوفة والكلام فيها كالذى فى الموصولة. الرابع: أنها مصدرية. أى ومن عمل أيديهم)(١).

والذى ارجحه:

أن ما نافيه. لكى يكون كل عمل فى تلك الحياة لله تعالى ولا دخل للإنسان فى شىء فيها فتكون نعمته أشمل ويكون الشكر لله وحده.

والهمزة للاستفهام الإنكارى، واستقباح عدم الشكر ودخلت على مقدر يقتضيه المقام تقديره: أيرون هذه النعم. أو أيتنعمون فلا يشكرون فتكون الفاء عاطفة ما بعدها على المقدر.

«سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون».

الجملة الأولى مستأنفة لا محل لها من الإعراب وسيقت لتنزه الله تعالى عما فعلوه من كفران الكفرة للنعم وعدم أداء شكرها أو أنها سيقت إثر ذكر الجنات المختلفة وتفجير العيون. وهذا يدعو إلى التعجب الذى تشير إليه كلمة سبحان الذى وهذه الكلمة مصدر منصوب بفعل محذوف وجوبا تقديره أسبح سبحانه، وهى علم على التسبيح. ومعناه (المر السريع فى الماء وفى الهواء يقال سبح سبحا وسباحه واستعير لمر النجوم فى الفلك نحو «وكل فى فلك يسبحون»، ولجرى الفرس نحو «فالسابحات سبحا» ولسرعة

---

(١) الفتوحات الإلهيه جـ ٣ ص ٥١٢

الذهاب فى العمل نحو «إن لك فى النهار سبحا طويلا» (والتسبيح تنزيه الله تعالى وأصله المر السريع فى عبادة الله تعالى)(١) .

و «الأزواج» الأصناف . وقوله «مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون» .

يقول الإمام الفخر (ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة تنحصر فيها المخلوقات فقوله مما تنبت الأرض يدخل فيها ما فى الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله «ومن أنفسهم» يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله مما لا يعلمون يدخل ما فى أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص . بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم)(٢) .

معنى الآيات :

بعد أن تحدثت الآيات الآنفة عن حقيقة واقعه لا مرية فيها وهى البعث فيجمع الله الخلائق للعرض والحساب والنعيم والعقاب . والأدلة على جواز البعث وعدم استحالته ما نراه فى البسيطة التى تقلنا فإن الله ينزل الماء على الأرض العارية عن النبات فهى كالميتة فتحيا هذه الحياة النباتية فيثمر النبات الحب من الأرض فيكون طعاما للإنسان والحيوان وزينها بالبساتين ومنها النخيل والأعناب وشق فى الأرض العيون التى ينساب منها الماء فيروى الأحياء ومع الزينة تعطى الجنات أكلها ليتفكه به الإنسان .

والله هو الذى أبدع هذا وبث روح الحياة فى الموات وأنبت الزرع النامى والجنان الوارفة والثمار اليانعة . هذه الآلاء التى لا تحصى ولا تستقصى من بدائع صنع الله للإنسان فلم يقابل أهل مكة هذه النعم بالشكر

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٢١

(٢) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ٨١

بل قابلوها بالجحود والكفران وعبدوا غيره ونعتوه بما لا يليق بذاته المقدسة فتنزه الله الذى أوجد من العدم الأصناف كلها مما تنبته الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون .

الآية الثانية :

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) تحدثت الآية السابقة عن بعض ما فى الأرض التى تقلنا وقابلها بالحديث عن بعض الآيات فى السماء التى تظلنا وهى انسلاخ النهار من الليل وجريان الشمس والقمر وأن كل كوكب ونجم يسبح فى فلكه لايند ولا يشرد عن مساره . ولقد بدأ الله الحديث عن هذه الآية بقوله « وآية لهم » مع أنها مكونة من أربع آيات متباينة تشهد كل واحدة منها على حده دلائل وافية عن قدرته وحكمته فلم يقل الله تعالى وآيات وأفردها بأنها آية ليشير إلى أنه يتحدث عن أحوال الأرض والشمس والقمر وهى مسخرة على صورة مجموعة واحـــدة يعمل بعضها مع بعض لغاية معينة وهدف واحد .

« نسلخ » السلخ نزع جلد الحيوان يقال سلخته فانسلخ وعنه استعير سلخت درعه نزعتها وسلخ الشهر وانسلخ . و وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » أى ننزع ضوء النهار من الليل فيعم الظلام . وهنا استعارة حيث شبه تعاقب الملوان وهما الليل والنهار ومجىء الليل بعد ذهاب النهار بسلخ الجلد عن الشاة بجامع الظهور فى كل على سبيل الاستعارة التصريحيه التبعيه .

«فإذا هم» إذا الفجائية وهم مبتدأ خبره مظلمون . والليل والنهار يتعاقبان على الكرة الأرضية ما عدا الأجزاء التى تقع فى الدائرة القطبية الشمالية والجنوبية فإن النهار يدوم فيها كما يدوم الليل أسابيع وأشهراً ولقد ولقد تحدث القرآن عن تعاقب الملوان لأن هذه الظاهرة هى الغالبة على معظم الأرض .

إعجاز القرآن العلمى :

«والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» .

هذه إشارة إلى حقيقة كونية أخبر بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك وهى أن الشمس تجرى فى حركة ذاتية لها والأرض تجرى كذلك حول محورها وينشأ عن حركتها السريعة الملوان وصرح القرآن بجريان الشمس وأومأ إلى دوران الأرض لعدم اكتشاف ذلك فى عصر نزول القرآن فلو قال والأرض تجرى وتدور لما صدق أهل مكة ذلك لأنهم لا يشعرون بحركتها لسرعتها وضآلة حجمهم عليها فلو أخبر القرآن بذلك صراحة لازدادوا عنادا وتمادوا فى رميهم القرآن بالسحر والكهانة وكونه أساطير الأولين . ولكنه خاطبهم بما يواكب عقولهم ويومىء باشارته قال تعالى (خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار)[1].

فلقد قال كل يجرى لأجـــل مسمى ولفظ كل يعود على السموات والأرض والشمس والقمر وفاعل يجرى ضمير مستتر يعود على كل .

---

(١) الزمر آية ٥ .

وتعاقب الليل والنهار يدل على حركة الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس ولقد أومأ القرآن إلى حركة الأرض دون أن يصرح بها لمراعاة عقول من نزل عليهم وعلى مر العصور سيكتشف ذلك وتدركه البشرية فيعرفون إشارة القرآن لها .

أما تصريحه بحركة الشمس فإن ذلك ينطبق على ما يشاهده الناس فإنها تجرى من المشرق إلى المغرب وهو بهذا الأسلوب يعبر عن حركة الشمس الذاتية فإنها تسير بسرعة مخصوصة قدرها العلماء باثنى عشر ميلا فى الثانية الواحدة يقول الدكتور الغمراوى إن الآية (تعبر عن حركة حقيقية أثبتها العلم للشمس بسرعة مخصوصة قدروها بنحو اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه مخصوص فى فضاء الله وهو الجهة التى فيها النجم المسمى فيجاف الإفرنجيه والنسر الواقع فى العربية والفعل يدل ليس فقط على حركة انتقالية ذاتية للشمس ولكن يدل أيضا على عظم تلك الحركة إذ الجرى طبعا أدل على السرعة من المشى أو السير ولو كانت الشمس غير ذات حركة فى الواقع وكان الفعل « تجرى » معبرا فقط عن حركتها الظاهرية بالنسبة إلى الأرض لا نفتح لملحد أو مستشرق يكفر بالقرآن أن يقول إن جملة الشمس تجرى هى من عند إنسان يصف ما يرى . أما وقد ثبت للشمس جرى حقيقى فى الفضاء متعين المقدار والاتجاه بعد نحو اثنى عشر قرنا من عصر القرآن فالجملة القرآنية هى من عند خالق الشمس آية للناس على أن القرآن من عند الله) (١) .

وهذا الاخبار عن تلك الحقيقة الكونية يعد إعجازا علميا وإشارة من إشارات القرآن العلمية والتى اكتشفها علماء الفلك فى العصر الحديث بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن قوله « لمستقر لها » أى أن الشمس تجرى

---

(١) الاسلام فى عصر العلم ص ٢٢٩ . ٢٣٠ .

لميقات معلوم هو يوم القيامة فاللام فى مستقر للوقت كما فى قوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس)[1] وكما فى قوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن)[2] ويؤيد هذا القراءة الآتية (والشمس تجرى إلى مستقر لها) ويكون لتلك القراءة معان عدة يقول الإمام الفخر (« والشمس تجرى إلى مستقر لها وعلى هذا فى ذلك المستقر وجوه : الأول يوم القيامة ، وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة . الثانى : السنه . الثالث : الليل أى تجرى إلى الليل . الرابع : أن ذلك المستقر ليس بالنسبة إلى الزمان بل هو للمكان)[3] .

والذى أراه : أن هذه المعانى المتباينة من هذه القراءة ليست مقبولة ما عـــدا المعنى الأول وهو أن الشمس تجرى إلى مستقر هو يوم القيامة فتتغير نواميس الكون يومها وعنده تستقر ولا تتحرك وهذا المعنى تصرح به بعض الآيات (إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت)[4].

وأما المعنى الثانى : فإن السنة تمر ومع هذا فحركة الشمس مستمرة .

وأما المعنى الثالث : فإن الليل يأتى ومع إتيانه تكون الشمس فى حركتها وجريانها .

وأما المعنى الرابع : وهو أن المراد بالمستقر المكان . فهذا المكان يصعب تحديده بل هى فى الفضاء الذى لا يعلم معالمه ومداه إلا خالقه .

وقرىء (والشمس تجرى لا مستقر لها) أى لا سكون لها ولا تنافى بين هذه القراءات الثلاث . فإن الأولى والثانية تثبتان جريان الشمس وعدم

---

(١) الاسراء آية ٧٨ .
(٢) الطلاق آية ١ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ٧ ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٤) التكوير آية ١ — ٢ .

استقرارها فى تلك الدنيا حتى إذا وقعت وقامت الواقعه القيامة توقفت عن الجرى وسكنت واستقرت . وأما القراءة الثالثة فإنها تثبت جرى الشمس وأنها لا تستقر فى الدنيا . يصور الشاعر محمود سامى البارودى(1) حركتها وجريانها إلى مستقر فيقول :

نهار وليل يدأبان وأنجم   تغيب إلى مقياتها ثم تشرق
ترف كزهر طوحته عواصف   بلجة ماء فهو يطفو ويغرق
سوابح لا تنفك تجرى لغاية   يقصر عنها الكاهن المتعمق

التوفيق بين هذه الحقيقة وبين سجود الشمس :

تنتقل الظاهرة الكونية فى بحث أسرارها من طور إلى طور فتنتقل من طور الملاحظة إلى طور التجربة ثم إلى النظرية ثم ينتهى الأمر بالظاهرة الكونية إلى طور الحقيقة .

وهى نهاية المطاف بالظاهرة الكونية فأطوار الملاحظة والتجربة والنظرية قابلة للتغيير والنقض . أما الحقيقة فإنها مرحلة الثبوت والصدق والواقع وعدم النقض والتغيير فإذا صارت الظاهرة الكونية حقيقة نتأمل فى القرآن هل أعطى إشارة لها أم لا . أما المراحل السابقة على الحقيقة فلا يجوز أن نبحث عن إشارات القرآن لها لأنها تتغير فيطرأ التغيير والتبديل على القرآن ، ومن المسلمات والحقائق أن الشمس تجرى فى فلكها والأرض تجرى حول محورها تجاه الشمس فإذا ظهر جزء من الأرض

(1) هو محمود سامى البارودى بن حسين بك ولد فى مصر سنة ١٨٣٨م وهو ينحدر من أصل جركسى تولى عدة مناصب . وهو أحد زعماء الثورة العرابية ونفى إلى سرنديب سبعة عشر عاما وعاد إلى مصر وتوفى بها سنة ١٩٠٤ م .

تجاه الشمس يكون أوله شروقاً ويدخل آخر الجزء عند نهايته أمام الشمس فى الغروب ، وهذا ما أثبته العلم الحديث وهو لا يصادم القرآن بل واكب ماجاء فى قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها) فكان بمثابة التفسير لهذه الآية .

ولقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ يعارض ظاهرة حركة الشمس وجريانها وهو عن أبى ذر رضى الله عنه (قال كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس فقال يا أبا ذر أتدرى أين تغرب الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم،قال فإنها تذهب تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقرير العزيز العليم)[١] .

فالمراد بسجود الشمس استمرار خضوعها فى التسخير للخلائق وهى تحت العرش دائمة الخضوع والسجود ، والعرش جسم نوارنى يحيط بالعالم فتكون الشمس تحته وهى أثناء النهار مسخرة وأثناء الغروب مسخرة ولقد قرب الرسول ﷺ هذا المعنى إلى أبى ذر فى الحديث الذى مر آنفا .

« ذلك تقدير العزيز العليم » .

آثر الله التعبير باسم الإشارة الذى يستعمل للمشار إليه البعيد مع قرب عهد الحديث عن المشار إليه ، للإيذان بعظم هذا العمل الذى تحار العقول والأفهام فيه ولا يقدر عليه إلا الله ، وأضاف تقدير إلى العزيز العليم دون غيره من الأسماء لأنه الغالب بقدرته كل شى وأحاط بكل شيء علماً فبالقهر والغلبة والعلم سارت الكواكب والنجوم على هذا المنوال .

(والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) .

---

(١) البخارى جـ ٦ ص ١٥٤

بعد الحديث عن الشمس التى هى المصدر الأول للضياء الذى تقوم عليه الحياة أعقبه بالحديث عن القمر فهو مصدر للنور ويؤثر على حركة المد والجزر فى البحار على الأرض فالله تعالى قدر مسير القمر منازل ينزل فى كل ليلة منزلا منها وهى ثمانية وعشرون (الشرطان — البطين — الثريا — الدبران — الهقعه — الهنعه — الذراع — النثره — الطرف — الجبهه — الزبره — الصرفه — العواء — السماك — الغفر — الزبانى — الإكليل — القلب — الشوله — النعائم — البلده — سعد الذابح — سعد بلع — سعد السعود — سعد الأخبيه — فرغ — الدلو المقدم — فرغ الدلو المؤخر — الرشا ، وهو بطن الحوت ، ينزل كل ليلة فى واحدة منها ولا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فإذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الإجتماع دق واستقوس)(١) .

وهذه المنازل ينزلها القمر فى ثمان وعشرين ليلة ، من كل شهر ويستتر ليلة إن كان الشهر تسعة وعشرين يوما وليلتين إن كان ثلاثين يوماً والتعبير بقوله « والقمر قدرناه منازل » يدل على أنه (جعل القمر فى فلكه يظهر من الأرض بأوجه من الضياء تزيد ثم تنقص تدريجيـــاً وبانتظام فى كل دورة كما هو مشاهد فأشار بهذا الظهور المنتظم المتكرر كل شهر إشارة قوية إلى أن فلك القمر الذى يسبح فيه لابد أن يكون ثابتاً بالنسبة للأرض متلازمين لـكى يستمر انتظام ظهور أوجهه)(٢) .

فالقمر يولد هلالا ولـكن فى ظهوره نضرة ثم يصير بدراً ثم يبدأ

---

(١) هامش مفاتيح الغيب وهو تفسير أبى السعود حـ ٧ ص ٥١٤ — ٥١٥

(٢) الأستاذ / حنفى أحمد فى كتابه « التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن » ص ٢٩٧

فى النقصان بعد التمام حتى يصير هلالا بيد أنه تعلوه الشحوب ويعبر القرآن عن هذه المرحلة الأخيرة بقوله «حتى عاد كالعرجون القديم» .

والعرجون مايخرج من الجريد عندما تثمر النخلة وفى نهايته عقدة تسمى العذق أو الكباسه(١) يتفرع منها الشماريخ التى تحمل الرطب ومن كثرة الثمر يتقوس العرجون ، ويجف ، وهنا مشبه هو القمر ومشبه به وهو العرجون القديم ووجه الشبه هيئة مركبة من الاستقواس والدقة والإصفرار .

إعجاز علمى :

لقد أشار القرآن فى تشبيهه القمر بالعرجون إلى حقيقة علمية هامة لم يكتشفها العلماء إلا فى العصر الحديث حينما وجهوا سفن الفضاء لاكتشاف سر هذا الكوكب فأدركوا أنه ليس فيه ماء الذى تقوم عليه الحياة ، ألا يعطى التعبير بقوله : «كالعرجون القديم» تلك الحقيقة؟ إن العرجون القديم جاف ليس فيه ماء فالقمر ليس فيـــه حياة وكذلك الكواكب الأخرى ليس فيها حياة .

لقد التقطوا صوراً للمريخ فوجدوه عارياً عن الحياة وكذلك الكواكب الأخر والسبب فى ذلك أن عطارد خال من الماء لقربه من الشمس فإن الماء يتبخر والكواكب الأخرى غير الأرض ليست فيها حياة كنبتون ، وبلوتو وأورانوس فبعدها عن الشمس ليس فيها حرارة فتستحيل الحياة عليها لأن كل شيء فيها ثلج .

---

(١) أنظر المصباح المنير ص ٣٢٢ ص ، ٣٩٩ ، ص ٥٢٤

ولقد أخبر القرآن عن عدم وجود الحياة فى غير الأرض قال تعالى : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)(١) .

وقال تعالى : (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين)(٢) .

وقوله تعالى : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فلك يسبحون) .

يسير نظام الكون على نواميس فطرها الله فيه ، فلا الشمس تشرد عن مدارها فتلحق القمر ولا الليل يخترم النهار فيسبقه ولكن يعقبه، وكل فى فلك يسبحون ، فالشمس لا تند عن فلكها والقمر لا يخرج عن مداره وهما فى فلكهما يسبحان ، فالفلك هو مجرى الكواكب وطريقها، وسمى بذلك لكونه كالفلك « ويسبحون » السبح المر السريع فى الهواء فهما يمران فى سرعة فى الفضاء ، والتنوين عوض عن الضمير المضاف إليه المحذوف وتقديره وكلهم وهذا الضمير يعود على الشمس والقمر وجمع باعتبار كثرة مطالعهما فإن اختلاف المطالع يوجب تعدد ما فى الذات .

معنى آية البعث الثانية :

والآية الثانية الدالة على البعث مشهد مألوف يراه الناس فى كل بقعة من بقاع الأرض خلال أربع وعشرين ساعة فينزع الله النهار من بعض الأجزاء الأرضية فإذا أهلها مظلمون .

ولما كانت الشمس هى مصدر النهار للأرض قال إن الشمس تجرى

---

(١) طه آيه ٥٥

(٢) الأعراف آيه ٢٤

بسرعة فائقة حتى يأتى يوم القيامة فتستقر وتبطل حركتها ، ويسكن جريها وهذا هو تقدير الله العالم ، ولقد سخر الله القمر ، فجعله ينزل منازل يستفيد منه أهل الأرض فيوله هلالا ثم ينمو حتى يصير بدراً ثم ينقص حتى يصير كالعرجون القديم فهذه الآية تجود بمعنى ثانوى أى تابع للمعنى الأصلى هذا المعنى هو دوران الأرض حول نفسها « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » وصرحت بحركة الشمس والقمر .

ويعطى هذه المعانى قوله تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار)(١) .

فالشمس تسير فى فلكها لا تند عنه فتسير فى فلك القمر فتدركه ولا الليل يسبق النهار فيخترقه بل لكل من الشمس والقمر والأرض فلكه الذى يسبح فيه ويمر فيه سريعاً فلا تميد الأرض ، ولا تضطرب الشمس ولا القمر فلا تفسد الحياة وحفظها الله على وفق علمه وعزته من غير أعمـــدة تحملها ، ومن كان هذا دأبه فهو القادر على البعث بعد الموت .

---

(١) ابراهيم آيه ٣٣

الآية الثالثة :

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله مايركبون وإن نشأ نغرقهم فلاصريخ لهم ولاهم ينقذون إلارحمة منا ومتاعا إلى حين) .

تحدث الله فى الآية السابقة عن آثار قدرته فى حركة الأرض والشمس والقمر مبينا سبحها وجريها قال تعالى: (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً)(١).

ثم أعقب الحديث عن سبح النجم والكوكبين فى الفضاء بالحديث عن سبح السفن فى الماء فآية القدرة على البعث فى هذه الآية أن الذى قدر على حملهم على الماء قادر على حمل أجسادهم على الإعادة مرة أخرى .

قوله : « حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون » لقد نظر العلماء إلى هذه الآية وفسروها على هذا النحو(أنا حملنا ذريتهم الضمير — فى ذريتهم — وهم الذين كانوا فى سفينة نوح فهؤلاء آباء لأهل مكة بالوسائط وإطلاق الذرية على الأصول صحيح فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين الأصول والفروع لأن الذرية من الذرء بمعنى الخلق والفروع مخـــلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منهم الفروع ، وفى البغوى واسم الذرية يقع على الآباء ، كما يقع على الأولاد وفى القرطبى : هذه الآية من أشكل ما فى هذه السورة لأنهم هم المحمولون فقيل المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية فى الفلك المشحون فالضميران مختلفان ذكره المهدوى وحكاه النحاس عن على بن سليمان انه سمعه يقوله ، وقيل الضميران جميعاً لأهل مكة على أن يكون المراد بذرياتهم أولادهم وضعفاؤهم فالفلك على

---

(١) فاطر آيه ٤١

القول الأول سفينة نوح وعلى الثانى يكون اسما للجنس أخبر تعالى بلطفه وامتنانه أن السفن يحمل فيها من يضعف عن المشى والركوب من الذرية والضعفاء فيكون الضميران على هذا متفقين وقيل الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام فالآباء ذرية بدليل هذه الآية ، قاله أبو عثمان وسمى الآباء ذرية لأنه ذرأ منهم الأبناء ، وقول رابع أن الذرية النطف حملها الله تعالى فى بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون قاله على بن أبى طالب ، ذكره الماوردى)(1) ، وأقول : هذه الآراء التى ساقها صاحب الفتوحات دون ترجيح أحدهما على الآخر : واهية لا يقوم صرحها على دليل صحيح فهى لا تتعدى أن تكون آراء عارية عن الحجة إلا الرأى الثانى الذى يقول بأن المراد بالذرية أولاد أهل مكة فإنى أرجح هذا الرأى وأدلل على صحته بما يأتى : —

١ — أنه لم يرد ذكر الأمم السابقة فى السباق على مدى ثمان آيات مضت قبل هذه الآية حتى يعود الضمير فى ذريتهم على القرون السابقة .

٢ — أنه لم يرد فى اللحاق وعلى مدى تسعة عشر آية حديث عن الأمم الماضية بل الخطاب والحديث فيها عن أهل مكة وعن سلوكهم .

٣ — الذين قالوا إن الذرية من أسماء الأضداد فقد ذهبوا إلى هذا ليفسروا هذه الآية، وهذه الآية دعت الشيخ القرطبى لأن يقول هذه الآية من أشكل ما فى هذه السورة وحملت أبا عثمان لأن يقول (الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام، فالآباء ذرية والأبناء ذرية بدليل هذه — أى الآية — فالذى دعا هؤلاء إلى القول بأن الذرية من أسماء الأضداد هذه الآية وما فيها من لفظ الفلك المشحون فمن أول وهلة قالوا إنها سفينة نوح وصرفوا لفظ الذرية إلى الآباء ويمكن تفسير الآية على هذا النحو .

---

(1) الفتوحات الإلهية ﺣ ٣ ص ٥١٥

وآية لهم أى ودليل البعث أيضا «أنا حملنا» وعبر بالماضى لأن الأزمان فى حق الله سواء فيستوى الماضى والحاضر والمستقبل عند الله أما هذه الأزمنة فإنها أزمنة البشر وعبر الله تعالى بالماضى لتحقق وقوعه فوعد الله لا يتخلف لأنه لا يشاركه أحد حتى يمنعه من تنجيز ما وعد به .

« فى الفلك المشحون » أى السفينة المملوءة وهذا إخبار من الله بأمر غيبى لهم سيقع مستقبلا لهم وهو أنه سيحمل ذراريهم فى السفن العملاقة التى تصل إلى كل بقاع الأرض وهذا دليل على أن القرآن من عند الله وليس من عند الرسول ﷺ وماذكره الماوردى ونسبه إلى على كرم الله وجهه فهو كلام واه لا يصدر عن ذلك الإمام لأن مكانته العلمية تنأى به أن يقول ذلك كيف يليق بعاقل أن يقـــول إن بطون النساء كالفلك المشحون والمراد بالذرية النطف فى الفلك . وإن اللحاق فى الآية يبعد هذا التفسير وهذا اللحاق هو قوله تعالى « وأن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون »

قوله «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» لقد تحدثت الآية السابقة عن وسائل النقل البحرى وجعلته إعجازا . وهذه الآية تحدثت عن وسائل النقل البرى وكما أعطت الآية السابقة إخباراً بالغيب أنبأت هذه الآية عن أمر غيبى على البر وهو أن الله سيجعل لهم وسائل عملاقة تسير على الأرض وتسبح فى الهواء .

وضمير الغيبة الأول الذى للجمع يعود على الذرية والضمير المفرد فى مثله يعود على الفلك المشحون ومن يجوز أن تكون للتبعيض ويجوز أن تكون حرف جر زائد وهى وما دخلت عليه فى محل نصب حال .

وذهب العلماء فى تفسير اسم الموصول إلى ثلاثة مذاهب (قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس هى السفن . وقال السدى عن أبى مالك هى السفن الصغار . وقال الحسن السفن الصغار . وقال أبو صالح : السفن الصغار .

الثانى : المراد بذلك الإبل فى رواية عن ابن عباس قال ذلك . وقال بذلك عكرمة وقال قتادة هى الإبل .

الثالث قال مجاهد : الأنعام أى الإبل وغيرها مما يركب)[١] .

والذى أراه :

أن المراد بما يركبون ماسيجد من طائرات فانها تسبح فى الهواء كما تسبح الفلك وكذلك سفن الفضاء بعد ذلك . وهذا إخبار بالغيب كما سبق ذكره ولقد جعلها الله مخلوقة له مع أنها من صنع العباد فإنها قد صنعت بإرادته وقدرته وإلهامه للخلق فإنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريده ألا ترى أنه قال (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا[٢]) .

وقوله (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين) أى وإن أردنا إغراقهم أثناء ركوبهم فلا مغيث لهم ولا ينجون إلا برحمة منا فإذا أدركتهم الرحمة نجوا وتمتعوا حتى تنتهى آجالهم قرىء نغرقهم بالتشديد (وفى تعليق الإغراق بمحض المشيئة إشعار بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به أى إن نشأنغرقهم فى اليم ما حملناهم فيه من الفلك)[٣] .

والصريخ المغيث ولقد أفادت جملة « فلا صريخ لهم » معنى غير معنى جملة « ولا هم ينقذون فإن الأولى تفيد أنه لا مغيث لهم يدفع عنهم الغرق

---

(١) تفسير الطبرى حـ ٢٣ صـ ١٠ ، ١١ باختصار وتصريف .

(٢) هود آية ٣٧

(٣) أبو السعود على هامش مفاتيح الغيب حـ ٧ صـ ٥١٦

قبل وقوعه، بيد أن أماراته قد بدت وأن الجملة الثانيـــة أفادت أنه عند تلبسهم بالغرق لا يجدون منقذا ينقذهم من الغرق .

وقوله « إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » هـذا استثناء مفرغ أى لا يغاثون ولا ينقذون لأى شىء إلا لرحمة تفضل الله بها عليهم وتمتيعهم فى الدنيا إلى أن تنقضى آجالهم . والحين هو الزمن أى أنه يمتعهم إلى زمن قدر فيه آجالهم .

معنى الآية الثالثه :

والآية الثالثة الدالة على قدرة الله التى لا تدانيها قدره فيها يبعث الله الخلائق بأمرها إنسها وجنها ووحشها وطـيرها وهوامها وحيوانها وحشراتها، تلك القدرة المتمثلة فى الإخبار بأمر غيبى لم يقع بعد وهو حمل ذرية المتحدث عنهم وهم أهل مكة فى السفن المملوءة التى تسبح فى البحار وتنطلق إلى أقصى الأماكن النائية التى يعجز الإنسان عن الوصول إليها ولا يصلها إلا بشق الأنفس . وخلق لهم مثل هذه السفن مراكب تسبح بهم فى الهواء كما تسبح، السفن فى الماء وتقلهم إلى حيث يريدون وإن يرد الله إغراقهم فلا منقـذ لهم إلا برحمـه من الله ويمتعهم إلى أزمنة يقدر فيها آجالهم .

صدف قريش وعنادهم :

(وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين) .

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

لقد عدد الله تعالى بعض الآيات الكونية وبين إعراض قريش عنها ثم أعقب ذلك بالحديث عن إعراضهم عن الآيات التنزيلية التى جعلها الله منهجا مشتملا على مبادىء سامية منها ما يتعلق بتنفيذ منهج الله فهذا يقيه من عذاب الله تعالى ومنها ما يتعلق بالتكافل الاجتماعى المتمثل فى الإنفاق من الأموال .

المباحث العربية :

(« إذا » لها معان أحدها : أن تكون ظرفا لما يستقبل من الزمان . وفيها معنى الشرط نحو إذا جئت أكرمتك . الثانى : أن تكون للوقت المجرد نحو قم إذا أحمر البسر أى وقت احمراره . الثالث : أن تكون مرادفة للفاء فيجازى بها كقوله تعالى « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون)[1] .

ولقد بنى الفعل للمجهول لأن الذى يدعوهم بهذا القول هو الرسول ﷺ والمسلمون فحذف الفاعل ليدل على عموم الدعاة لهذا القول ومن الأولى مزيدة للتوكيد والثانية للتبعيض . وهنا طباق بين الذين كفروا والذين آمنوا .

« ما بين أيديكم وما خلفكم »

يقول الفخر الرازى (وفى قوله تعالى « ما بين أيديكم وما خلفكم » وجوه : أحدها : ما بين أيديكم الآخرة فإنهم مستقبلونها وماخلفكم الدنيا فإنهم تاركون لها . ثانيها : ما بين أيديكم من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون » .

---

(١) المصباح المنير ص ١٠

وما خلفكم من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى « ومتاعاً إلى حين » وثالثها مابين أيديكم من أمر محمد ﷺ فإنه حاضر عندكم وماخلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ والتكذيب بالحشر رحمكم الله)(١) .

هذه الوجوه الثلاثة ذكرها الإمام الرازى دون ترجيح أحدها .

والذى أراه :

أن قوله « مابين أيديكم وما خلفكم » القرآن فلقد دعاهم الرسول ﷺ إليه من أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . فقوله « اتقوا مابين أيديكم وماخلفكم » كى ترحموا فى العمل به وقاية من النار والرحمة من العزيز الغفار .

« لعلكم ترحمون » الترجى ليس على حقيقته بل هو حال من الواو فى اتقوا أو هو غاية لهذا الفعل أو أن الراجى هم أهل مكة أو أن لعل للتعليل أو بمعنى كى .

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

هذا أسلوب يبين أن دأبهم الإعراض عنـد مجىء كل آية إليهم . والاعراض هنا المراد به زرع العثرات فى سبل كل آية والتنكيل بالرسول ﷺ وأصحابه .

وجواب « إذا » محذوف ويستفاد من هذه الآية والتقدير « إذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وماخلفكم لعلكم ترحمون » أعرضوا .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٧ ص ٩٢ ، ٩٣

(وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين) .

لقد سبق بيان جحود قريش لمخالفتهم بإعراضهم عن قرآنه وآياته وهذه الآية تبين جحودهم وبخلهم قبل بعض المخلوقين من الفقراء والمساكين .

المباحث العربية :

بنى الفعل المجهول لكثرة القائلين لهم لجهات الأمر متعددة من قبل الله والرسول ﷺ والصحابة .

« مما » من الجارة وما الموصولة والجملة بعدها صلتها . وأظهر فى موضع الإضمار ولم يقل قالوا للذين آمنوا . لتسجيل الكفر عليهم . وبيان أن استفهامهم مصدره الكفر .

« أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » .

الاستفهام للإنكار والتوبيخ . وكان السياق يقتضى أن يقولوا أننفق إلى من لو يشاء الله أنفق عليه ولكنه أضرب صفحاً عن هذا فقال أنطعم من لو يشاء الله أطعمه لوجوه :

١ — إما أن يكون المراد من الأمر فى أنفقوا الإطعام .

٢ — أو أن نطعم هنا بمعنى ننفق ونعطى .

٣ — أو أن منع الإطعام يدل على منع غيره بطريق الأولى .

« إن أنتم إلا فى ضلال مبين » :

إن بمعنى ما والاستثناء مفرغ والمراد من النفى والاستثناء القصر أى ما أنتم إلا فى ضلال ظاهر بين والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم

وضده الهداية وهذه الجملة فيها أقوال من حيث مصدرها وقائلها. (قيل هو من قول الكفار للمؤمنين أى فى سؤال المال واتباعكم محمداً ﷺ قال معناه مقاتل وغيره . وقيل هو من قول أصحاب النبى ﷺ لهم — أى للكفار — وقيل من قول الله تعالى للكفار حين ردوا بهذا الجواب وقيل إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء قال نعم . قال فما باله لم يطعمهم ؟ قال ابتلى قوماً بالفقر وقوماً بالغنى وأمر الفقراء بالصبر وأمر الأغنياء بالإعطاء . فقال أبو جهل والله يا أبا بكر إن أنت إلا فى ضلال : تزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لايطعمهم ثم تطعمهم أنت . فنزلت هذه الآية ونزل فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآيتين)(١) .

معنى الآيات :

وإذا قيل للمشركين إحذروا غضب الله وسخطه من إعراضكم عن منهجه المتمثل فى القرآن وفى سنة من نزل عليه القرآن . وادرجوا على الصراط المستقيم لكى ترحموا صدفوا عن هذا النصح فإعراضهم وصدودهم لازم فى سلوكهم لايفارقهم أبداً . وإذا نصحهم ناصح لحثهم على أن يسلكوا السلوك الخاص بالتكافل الاجتماعى . وهو مديد العون للمعسرين والمحتاجين من الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل وتخليص العبيد من الرق . قالوا أننفق إلى من لو يشاء الله أحسن إليه ولم يدرك الأغنياء أن الله فضل بعض الخلق على بعضهم فى الرزق فابتلى الأغنياء بالفقراء وأمرهم بالإنفاق من مال الله الذى بأيديهم فهو مال الله وأمر الفقراء بالصبر على فقرهم فالدنيا زائلة ولن يدوم الفقر وكذلك الغنى . ثم بين الله تعالى خلقهم فقال ماهم إلا فى ضلال بين واضح .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٣ ص ٥١٧ ، ٥١٨

المشركون ومعالم القيامة :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ فى الصور فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لاتظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ماكنتم تعملون . إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون . سلام قولا من رب الرحيم) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

لما سبق الحديث عن دعوة المشركين إلى أن يتقوا مابين أيديهم وماخلفهم كى يرحموا ولما نصحوا بالإنفاق فى سبيل الله . قالوا لا فائدة فى هذا الاتقاء ولا فى إنفاقنا . ولقد رد المسلمون عليهم بأن الثمرة يوم القيامة قالوا « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » وسؤالهم سؤال إنكار وتوبيخ والخطاب للرسول ﷺ والمسلمين . ولقد أجابهم الله بقوله « ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » إلخ .

المعلم الأول نفخة الصعق وحال الناس فيها :

« ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » .

المباحث العربية :

« ما » نافية . والاستثناء المفرغ مراد به القصر أى ما ينظرون إلا صيحة واحدة وجملة وهم يخصمون جملة حالية وصاحب الحال المفعول به

فى تأخذهم . و « يخصمون » فيها قراءات مشهورات : (القراءة الأولى : بكسر الخاء وتشديد الصاد مع كسرها فكسرت الخاء لمناسبة الصاد المكسورة وكان الأصل يختصمون فأدغمت التاء وشددت الصاد وهذه قراءة بعض قراء الكوفة . القراءة الثانية : يخصمون بسكون الخاء وتخفيف الصاد مع كسرها . القراءة الثالثة : بسكون الخاء وتشديد الصاد ثم أدغمت التاء فى الصاد فصارت صاداً مشـــددة وتركت الخاء على سكونها . القراءة الرابعة : فتح الخاء وتشديد الصاد بيد أن حركة التاء فى الأصل نقلت إلى الخاء)(١) .

وهذه القراءات مشهورة فبأيتهن قرأ القارىء فهو مصيب . ومعنى « ماينظرون » أى لاينظرون ومعنى «صيحة» صوت يفزع من يسمعه وهو صوت النفخ فى الصور والذى عبر عنه الله فى آيات أخر منها الراقعة — والراجفة — والطامة الكبرى — والصاخة — والزلزلة — والقارعة . وهذه الصيحه شديدة الهول ودليل شدتها مايأتى :

١ — التنـكير فى صيحة .

٢ — إذا وقعت لا يستطيع أحد أن يوصى بشىء .

٣ — ولا يستطيع العود إلى أهله .

٤ — كونه تأخذهم . تدل على العموم .

وواحدة صفة لصيحة « ويخصمون » يتخاصمون ويجادلون .

وهذه النفخة نفخة الفزع فهناك ثلاث نفخات . وهذه هى الأولى كما قال ابن كثير فى تفسيره لهـــذه الآية (أى ماينتظرون إلا صيحة

---

(١) انظر تفسير الطبرى ج٢٣ ص ١٤

واحدة وهذه والله أعلم نفخة الفزع. ينفخ فى الصور نفخة الفزع والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون)[١] .

« فلا يستطيعون توصية » الفـــاء للترتيب والتعقيب والتعبير بلا يستطيعون توصية أبلغ من القول فلا يوصى بعضهم بعضاً لأن الذى لا يوصى قد يكون قادرا عليها ولا يستطيع. والذى يستنبط من هذا التعبير أنه إذا أتت الصيحة لا يستطيع أحد أن يقول كلمة هى الوصية و « ولا إلى أهلهم يرجعون » معطوف على الجملة السابقة أى لا يعودون إلى العشيرة والأولاد كما خرجوا .

معنى هاتين الآيتين :

لقد سأل المتعنتون سؤالا إنكاريا على ميقات الساعه وجهل الأغبياء أن ميقاتها لا يأتى على هوى إنسان أو على رغبة جاحد بل تأتى وفق نواميس اقتضتها حكمة الله الأزلية التى تضع كل شىء فى نصابه وكل حادث فى إبانة فوعد الله لا يقع لاستعجال البشر ولا يتأخر لرجائهم فى تأخيره فما ينتظرون إلا صيحة تأخذهم بغتة وهم فى معترك حياتهم يصفقون فى الأسواق يتخاصمون ويجادلون فى أمورهم فإذا دهمتهم لا يستطيع كل واحد منهم توصية فى أى أمر من أموره ولا يستطيع الرجوع إلى أهله فالجزع قد قطع أوصالهم والهلع قد مزق قلوبهم .

المعلم الثانى : نفخة البعث وحال الناس فيها :

(ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من قدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٥٦٧

واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

لقد سبق الحديث عن نفخة الفزع وهى الأولى وتعقبها مباشرة نفخة الصعق والفناء وهى الثانية : فعلى أثرها يصعق كل شيء وبعدها تفنى الخلائق بأسرها ويعطى هذا المعنى قوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه)(١) ثم بعدها تكون نفخة البعث والإعادة وهى التى فى صدر هذه الآيات .

حديث النفخ :

هذه الأحوال من الأمور الغيبية التى يخبرها الصادق الأمين فلامدخل فيها للاجتهاد والرأى فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال (قال رسول الله ﷺ . إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش . ينتظر متى يؤمر قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟

قال قرن قال وكيف هو ؟ قال قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين. يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره الله فيديمها ويطولها فلا يفتر وهى التى يقول الله « ماينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق » ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله فإذا هم خامدون .

---

(١) القصص آية ٨٨

ثم يميت من بقى فإذا لم يبق إلا الله الواحد الصمد بدل الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم العكاظى لاترى فيها عوجا ولا أمتا ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى هذه المبدلة فى مثل مواضعهم من الأولى ما كان فى بطنها كان فى بطنها وما كان على ظهرها كان على ظهرها)(١) .

المباحث العربية :

« الصور » هو مثل القرن والذى ينفخ فيه الملك إسرافيل وسمى صورا لأنه يكون سببا فى الإحياء وعود الصور والأرواح يقول الراغب (« ويوم ينفخ فى الصور » فقد قيل هو مثل قرن ينفخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سببا لعود الصور والأرواح إلى أجسامها)(٢) .

« الأجداث » جمع جدث بفتح الجيم والدال وقرى من الأجداف جمع جدف وهما لغتان وبمعنى واحد . أى القبور .

« ينسلون » يسرعون فالنسلان الإسراع فى المشى وهم يقسرون على هذا « من بعثنا » يقول الراغب (أصل البعث إثارة الشىء وتوجيهه يقال بعثته فانبعث ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته وسيرته وقوله .

« والموتى يبعثهم الله » أى يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة . فالبعث ضربان : بشرى كبعث البعير وبعث الإنسان فى حاجة . والهى وذلك ضربان أحدهما إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع . والثانى إحياء الموتى) (٣) .

(١) تفسير الطبرى ج ٢٣ ص ١٤
(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٩٠
(٣) المرجع السابق ص ٥٢ باختصار

«مرقدنا» المرقد إما مصدر من الرقاد وإما أن يكون اسم مكان. فإن كان اسم مكان فإنهم فى مضاجعهم يذوقون العذاب صنوفا. وإن كان مصدرا من الرقاد فكيف يستريح أعداء الله؟ والجواب على ذلك من وجهين:

الأول: أن عذاب القبر بالنسبة لعذاب الآخرة راحة فكأنهم فى نوم.

الثانى: أنهم يهجعون قبل البعث هجعة (قال أبى بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة: ينامون نومة قبل البعث)(١) وهذه الهجعة ليعرفوا الراحة من مرارة العذاب.

«ونفخ فى الصور» بنى الفعل للمجهول لأن من دأب القرآن أن يهتم بالحدث دون ذكر الأشخاص غالبا. «فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون» إذا الفجائية، وهم مبتدأ والفعل ينسلون خبر المبتدأ والجار والمجرور الأول متعلق به وكذلك الجار والمجرور الثانى. «يا ويلنا من بعثنا» يا للتنبيه ويجوز أن تكون للنداء وويل مصدر لا فعل له من لفظه بل له فعل من معناه وهو هلك.

«هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون» المشار إليه هو البعث وما اسم موصول وعائد الصلة محذوف تقديره هذا ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون. وهذا إقرار أتى بعد فوات الأوان فليس له ثمرة فى هذا الموطن لأنه لم يغرس فى دار العمل «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون» إن بمعنى ما النافية أى ما كانت النفخة التى سبق الحديث عنها إلا صيحة واحدة وقعت من نفخ إسرافيل عليه السلام. ولقد أفاد التنكير فى صيحة التهويل. قوله «جميع لدينا» أى مجموعهم ويدل على تهوين أمر البعث والحشر. وقوله «محضرون» جمع اسم المفعول من أحضره. فالملائكة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص٥٦٧

تقسرهم ويدعونهم دعا . وقوله «فاليوم لاتظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» هذا الكلام إلى قوله « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » حكاية لما سيقال لهم يومئذ زيادة فى ندمهم وحسرتهم فإن إعلامهم بحال أعدائهم وحسن أعمالهم ورغد معيشتهم مما يزيدهم مساءة وهذه الآية تثبت أنهم لا يظلمون شيئاً فإن الله حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرما كما أخبر بذلك (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[1] .

معانى الآيات :

ونفخ فى الصور النفخة الثالثة فتنشق عنهم الأرض فإذا هم ينتفضون من قبورهم ويمضون سراعا تبدو فى حركتهم الدهشة والذعر ينادون يا هلا كنا أحضر ، ويتساءلون من بعثنا مرقدنا ؟

هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون ، وما هذه النفخة الآنفة الإصيحة شديدة تخرج الخلاق على أثرها حائرة منتشرة كأنها الفراش المبثوث ثم هم يثوبون ، فإذا هم جميع لدينا محضرون ، الإنس والجن والوحش والطير والهوام واختلطت الكائنات فلا تسمع لها ركزا — أى صوتا خفيا — ثم ينصب الميزان ويحاسبون على ما قدموا فيجازى المسىء على إساءته والمحسن على إحسانه دون أن تظلم نفس شيئا ثم يطوى السياق الحديث عن هذا المعلم ويعرض ما صار إليه المؤمنون العاملون من النعيم .

---

(١) الأحاديث القدسية جـ ١ ص٢٦٤ جزء من حديث

المعلم الثالث : نعيم أهل الجنة :

(إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون. هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولا من رب رحيم) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

لما عرض بعض أهوال القيامة أعقبها بذكر حال السعداء المؤمنين فإنهم يفوزون بما يعده الله لهم من الثواب . وهذه الآيات (زيادة تصوير للموعود وتمكين له فى النفوس وترغيب فى الحرص عليه وعلى ما يثمره فى شغل : فى أى شغل فى شغل لا يوصف وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التى هى دار المتقين ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم . ووقع فى تلك الملاذ التى أعدها الله للمرتضين من عباده ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم . وذلك بعد الوله والصبابة والتقصى من مشاق التكليف ومضايق التقوى والخشية وتخطى الأهوال . وتجاور الأخطار . وجواز الصراط)(١) .

المباحث العربية :

« إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل » توكيد بإن واسمية الجملة « فى شغل » أفرد الشغل لأن المراد به النعيم وهو واحد والتنكير لرفعة شأنه . قرىء بضم الحرف الأول والثانى وقرىء بضم الأول وفتح الثانى . وقرىء بفتحها معاً ولقد تباينت الروايات فى معناه .

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧

(والظاهر أن الشغل هو النعيم الذى قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال وقال قريبا منه مجاهد وبعضهم خص هذا الشغل بافتضاض الأبكار قال ابن عباس وعنه أيضا سماع الأوتار وعن الحسن شغلوا عن ما فيه أهل النار . وعن الكلبي عن أهاليهم من أهل النار لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا . وعن ابن كيسان الشغل التزاور . وقيل ضيافة الله)[1] .

« فكهون » قرأ الجمهور فاكهون بالألف وقـــرأ آخرون فاكهين بالألف وبالياء فإذا كانت بالرفع فهى خبر ثان والخبر الأول ما تعلق به فى شغل والفكاهة التلذذ « هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون » « هم » يجوز أن يكون مبتدأ . وأزواجهم معطوف عليه وفى ظلال خبره ومتكئون خبر ثان ويحتمل أن يكون الخبر الثانى هو الأول وفى ظلال متعلق به . ويجوز فى الضمير « هم » أن يكون توكيداً للضمير فى فكهون وفى ظلال حال . ومن مجموع هذه المعانى . فإن الزوجات يشاركن الأزواج فى التفكه — وهو التـــلذذ من بعض الأطعمة والمزاج — والإتكاء على الأسرة تحت الظلال .

« لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم » يدعون من الدعاء أى يدعون به لأنفسهم ويجوز أن يكون بمعنى يتمنون من ادع على ما شئت . وقولا مصدر مؤكد والمعنى يقال لهم قولا والأوجه أن ينتصب على الاختصاص .

---

(٢) البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٤٢

معنى الآيات :

إن ملاك الجنة يوم القيامة وما بعده مشغولون بما هم فيه من النعيم ، متلذذون متفكهون وإنهم تحت ظلال مستطابة . دانيـــة قطوفها . يستروحون نسيمها . يستنشقون أريجها . متكئين على أرائكها . تشاركنهم أزواجهن نعيمها . لهم فيها كل ما يتمنون . ولهم فوق هذه اللذائذ سلام يتلقونه من ربهم الرحيم .

المعلم الرابع : عذاب أهل النار :

(وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون . اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون . ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأن يبصرون . ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

يجمع المحشر يوم القيامة الخلائق كلها بارها وفاجرها فذكر الله تعالى ما يقال للمؤمنين يومئذ فقال « سلام قولا من رب رحيم » ويقال للكفرة الفجرة « امتازوا اليوم أيها المجرمون » .

المباحث العربية :

« وامتازوا » هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة التى سيقت لبيـان أحوال أهل الجنة فيكون عطف قصة سوء حال هؤلاء وجزائهم على

قصة حال أهل الجنة وثوابهم وليس المقصود عطف فعل الأمر على ماسبق ومعنى امتازوا أي اعتزلوا عن المؤمنين بدخول بيوتكم الكائنة في النار .

«أيها المجرمون» آثر النداء بلفظ المجرمين لبيان أن إجرامهم في سلوكهم مرده إلى شركهم « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين» هذا من جملة ما يقال لهم يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ ، والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير والمراد هنا التكاليف الإلهية الواردة على ألسنة الرسل ويجوز أن يكون هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور بنى آدم أشهدوا على أنفسهم ويجوز أن يكون العهد ما نصب لهم من الأدلة السمعية والبراهين العقلية .

وآثر ندامهم ببنى آدم على يا أيها الناس لبيان غبائهم وجهلهم فهم يعلمون أن الشيطان أخرج أباهم آدم من الجنة .

وكان سبب شقائهم ومع هذا انقادوا له وأطاعوه حين زين لهم الكفر فالمراد بقوله « لا تعبدوا الشيطان» أي لا تطيعوه وعبر عن الطاعة بالعبادة لأمرين :

١ — لزيادة التحذير والتنفير من طاعة الشيطان .

٢ — العبادة فيها ذل وخشوع وهل يخشع الإنسان لمخلوق دونه ؟.

« إنه لكم عدو مبين» هذه الجملة مستأنفة سيقت لبيان وجوب الانتهاء عن المنهى عنه . وهو عبادة الشيطان فهو عدو ظاهر العداوة لا يخفى هذا على من يمت بالإنسانية بصله .

« وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » .

هذه الجملة معطوفة على أن لا تعبدوا وأن مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والأمر أو هي مصدرية محذوفة الجار فيكون المعنى ألم أعهد

إليكم يابنى آدم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى ولقد تقدم النهى على الأمر لما فيه من التخلية التى يعقبها التحلية . والمراد بالأمر فى قوله «اعبدونى» التوحيد والإسلام .

ولقد فسره قوله تعالى « هذا صراط مستقم » أى هذا طريق الوصول إلى الله لا اعوجاج فيه والتنكير للتفخيم .

ولقد قال الله عند النهى عن عبادة الشيطان إنه لكم عدو مبين لأن العداوة أشد الموانع من الاتباع وعلى ضوء ذلك كان سياق الأمر فى قوله «اعبدونى» الخ يقتضى أن يأتى مراكبا للنهى وما بعده بقوله « وأن اعبدونى فأنا حبيب مبين» ولكنه عدل عن ذلك وعن سبب العدول يقول الإمام الفخر الرازى (عن المنع من عبادة الشيطان قال إنه لكم عدو مبين لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة فيقول إنه يحبنى فلا حاجة إلى تحمل المشقة فى تحصيل مراضيه بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء فى الحمل على العبادة وذلك كونه طريقا مستقيما وذلك لأن الإنسان فى دار الدنيا فى منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه والنازل فى بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شىء أحب من طريق قريب آمن فلما قال الله تعالى «هذا صراط مستقيم» كان ذلك سببا حاثا على السلوك)(١) .

«ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون» هذا جواب قسم محذوف وهذه الجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة سيقت لتشديد التوبيخ والتقريع فهؤلاء خالفوا فى أمرين :

الأول : أنهم نقضوا الميثاق الذى أبرم بينهم وبين الله تعالى .

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ١٠٦

الثانى : عدم الاتعاظ بما شاهدوا من الأمم السابقة فلقد أطبقت الآفاق أخبارهم . وأبقى الدهر آثارهم .

وهمزة الاستفهام داخلة على مقدر يقتضيه المقام . أكنتم تشاهدون آثار الأمم الماضية وهى شاهدة على عقابهم أنه لضلالهم و كفرهم أو يكون التقدير أكنتم تشاهدون آثار الأمم الماضية التى عوقبت فلم تـكونوا تعقلون حتى لا يصيبكم ما أصابهم .

« جبلا كثيرا» معناه كما يقول الراغب(فلان ذو جبلة أى غليظ الجسم وثوب جيد الجبلة وتصور منه معنى العظم فقيل للجماعة جبل قال تعالى « ولقد أضل منكم جبلا كثيرا » أى جماعة تشبيها بالجبل فى العظم[1]) .

فالمراد بهذا اللفظ فى الآية الجماعة العظيمة ، وفيه قراءات بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وقرىء بضم الجيم وسكون الباء مع التخفيف وقرىء بكسر الجيم والباء والتخفيف وقرى بكسر الجيم وسكون الباء مع التخفيف وقرى «جيلا» بالجيم والياء وهم الصنف من الناس فى زمن واحد .

« هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تـكفرون » .

هذا استئناف ويقال لهم عندما يسمعون حسيس جهنم . وهذا اللفظ اسم لنار الله الموقدة . وقيـل أصلها فارسى وهو جهنام وعربت . « التى كنتم توعدون» كانوا يوعدونها على ألسنة الرسل عليهم السلام « اصلوها اليوم بما كنتم تـكفرون » الأصل فى الصلى هو إيقاد النار فيكون المعنى ادخلوها فأنتم وقودها كما أخبر بذلك القرآن الكريم (وقودها الناس والحجارة)[2] .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٨٧

(٢) التحريم آية ٦

والأمر للإهانة. والمراد باليوم يوم القيامة والباء للسببية . وما مصدريه فيكون المعنى ادخلوا النار وذوقوا حرها اليوم بسبب كونكم كفرتم فى دنياكم وعبر عن الماضى بالمضارع إما لحكاية حال ماضية أو لنقل صورة الكفر بتجددها وحدوثها .«اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » المراد باليوم يوم القيامة . ويقول الراغب فى معنى (الختم والطبع يقال على وجهين . مصدر ختمت وطبعت وهو تأثير الشىء كنقش الخاتم والطابع والثانى الأثر الحاصل عن النقش ويتجوز بذلك تارة فى الاستيثاق من الشىء والمنع منه اعتبارا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب نحو « ختم الله على قلوبهم» «وختم على سمعه» وتارة فى تحصيل أثر عن شىء اعتبارا بالنقش الحاصل وتارة يعتبر منه بلوغ الآخر ومنه قيل ختمت القرآن أى انتهيت إلى آخره)(١) .

والمراد من هذه المعانى لهذه الآية هو منع أفواههم وألسنتهم من النطق والاستيثاق منهم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما فعلوه فالكسب ما يتحراه الإنسان بما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ وقيل فى معنى الكسب هو ما أخذه الإنسان لنفسه ولغيره والاكتساب ما أخذه الإنسان لنفسه فقط(٢).

ولقد أسند الله الختم إليه والكلام للأيدى وجعل الشهادة للأرجل لأن الأفعال غالبا ما تسند إلى الأيدى فهى عاملة . وجعل الأرجل حاضرة شاهدة عليها فهى غير الأيدى لأن الواجب أن يكون الشاهد غير العامل . وأسند الختم إليه لكى لا يكون هناك جبر لها . ولقد صور الرسول ﷺ هذا الأمر الغيبى . يقول أنس بن مالك رضى الله عنه (كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال هل تدرون مم أضحك ؟ .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١٤٢ — ١٤٣
(٢) انظر المرجع السابق ص ٤٣٠ — ٤٣١

قال : قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم ؟ قال قال يقول بلى . قال فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم عليه فيقال لأركانه(١) انطقى قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل)(٢) .

« ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون . ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون » .

يقول القرطبى فى معانى هذه الألفاظ والجمل (حكى الكسائى : طمس يطمس — من باب ضرب يضرب — ويطمس — ومن باب نصر — والمطموس والطميس عند أهل اللغة : الذى ليس فى عينيه شق . قال ابن عباس: المعنى: لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق وقال الحسن والسدى المعنى لتركناهم عمياً يترددون فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها وهذا اختيار الطبرى وقوله « فاستبقوا الصراط » أى استبقوا الطريق ليجوزوا « فأنى يبصرون » أى فمن أين يبصرون وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروى عن ابن عباس : ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم وأعميناهم عن غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فاهتدوا وأبصروا رشدهم وتبادروا إلى طريق الآخرة. ثم قال «فأنى يبصرون» ولم نفعل ذلك بهم أى فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة على الضلال باقية . وقد روى عن عبد الله بن سلام فى تأويل هذه الآية غير ما تقدم . وتأولها على أنها فى يوم القيامة وقال إذا كان يوم

---

(١) أركانه : جوارحه .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ١٠٤ — ١٠٥

القيامة ومد الصراط نادى مناد ليقم محمد ﷺ وأمته فيقومون برهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجارهم فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه ثم ينادى مناد ليقم عيسى ﷺ وأمته فيقوم فيتبعونه برهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام)(١) .

« ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم » المسخ : تشويه الخلق والخلق وتحويلها من صورة إلى صورة أخرى و « مكانتهم » الموضع الحاوى لهم فتسكون على بمعنى فى .

«فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون» فما قدروا على الذهاب أو الرجوع وكان السياق يقتضى أن تنتهى الآية بمصدر لمراعاة المصدر السابق ويكون على هذا النمط فما استطاعوا مضياً ولا رجوعاً ولكن الآية جاءت عكس ذلك وأتت بفعل دون المصدر لمراعاة فواصل الآيات .

معنى الآيات :

انعزلوا أيها المجرمون عن المؤمنين . فشأنكم اليوم التحقير والتذليل. ثم ألم أوصكم ياذرية آدم بأن لاتطيعوا الشيطان لعداوته لكم فوسوسته لأبيكم ناطقة بعداوته الظاهرة . وأطيعونى فهى السبيل السوى المؤدى إلى رضاى ولقد كان سبباً فى عدول خلق كثير عن الطريق المستقيم « أفلم تكونوا تعقلون » وبعد هذا الموقف العصيب من التوبيخ والتحقير يعلن الجزاء الأليم للعصاة والمذنبين فى تهكم وتأنيب . هذه النار التى أوعدتكم إياها على ألسنة الرسل. ادخلوها وذوقوا آلامها بسبب كفركم وشركم. ثم يطوى هذا المشهد ويأتى الله تعالى بعرض مشهد عجيب وهو أنه حين ينكر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ص ٥٤٩٣ — ٥٤٩٤

هؤلاء المجرمون ماقدموا ويجحدون نعم الله تعالى فتعقد ألسنتهم وتتحدث أيديهم وتشهد أرجلهم . وهـــذا مشهد غير مألوف لهم فلقد تفككت أوصالهم مزقاً يخذل بعضها بعضاً ويشهد بعضها على البعض وترجع كل جارحة إلى الله عز وجل مفردة ويئوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً .

ولو أردنا طمس أعينهم فيعتريهم العمى فيضلوا سبل الحياة لفعلنا بهم. ولو أردنا مسخهم حجارة أو حيوانات فلا يقدرون على الذهاب أو الرجوع لفعلنا بهم .

عود على بدء :

(ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون) .

مناسبة الآية بما قبلها :

يقول الإمام الفخر الرازى فى مناسبة هذه الآية بما قبلها (قد ذكرنا أن قوله تعالى « ألم أعهد إليكم » قطع للأعذار بسبق الإنذار ثم لما قرر ذلك وأتمه شرع فى قطع عذر آخر وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا فى الدنيا إلا يسيراً ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيراً فقال الله تعالى ، أفلا تعقلون ، أنكم كلما دخلتم فى السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ماتتمكنون من البحث والإدراك)(١) .

المباحث العربية :

«ننكسه» النكس قلب الشىء على رأسه والمراد به تغيير أحوال خلقة الإنسان من ضعف يبدأ من النطفة إلى الطفولة المتأخرة ثم يقوى ويشتد ثم يعود إلى الضعف والتداعى والوهن وضعف الطفولة أهون من ضعف

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ١١٠

الشيخوخة لأن فى الطفولة يتدرج الضعف إلى القوة وفى الشيخوخة يتدرج من ضعف إلى ما هو أضعف .

« أفلا يعقلون » همزة الاستفهام داخلة على مقدر تقديره أيرون ذلك التغيير فلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على طمسهم ومسخهم وإماتتهم وإحيائهم .

معنى الآية :

ومن فنسأله فى عمره ويمتد أجله نقلبه إلى طفولته بيد أن ملامح الطفولة وبراءتها محبوبة تنفرج لها الأسارير ويهتف لها الوجدان . أما طفولة الهـرم فتضعف فيها الأعصاب ويضمحل فيها التفكير فالشيخ محتوى لا تقال له عثرة . ولا تدركه من البشر رحمة ولو بنظرة أيرى الناس ذلك فلا يعقلون . وحض فريه .

(وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)

هذا رد على فرية آثار رهجها صناديد الشرك كديدنهم فى إثارة النقع(١) فى مآقى البشر حتى لا يروا نور الحقيقة لهذا القرآن فيعيشوا فى طخية(٢) عمياء ، فقالوا شاعر وقالوا ساحر ، وقالوا مجنون . وقالوا كاهن . وقالوا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . وأقوالهم هذه مختلفة ومضطربة ، وهذا كاف فى إبطاله فى العقل للعقل ثم وردت الآيات تفند ما ذهبوا إليه (إنه لقول رسول

---

(١) الرهج والنقع : هما بمعنى واحد وهو الغبار .

(٢) طخيه : بطاء ثم حاء ساكنه وبثلث أولها : الظلمه .

كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون . تنزيل من رب العالمين)[١] .

وقال تعالى (وما صاحبكم بمجنون)[٢] . والآية التى معنا ضرب من ضروب الرد على ما افتراه أهل مكة على القرآن وعلى من أتى به .

المباحث العربية :

« وما علمناه الشعر » العلم ضربان ، الأول : إدراك حقيقة الشىء والثانى الحكم على الشىء بوجود شىء هو موجود له أو نفى شىء هو منفى عنه . والشعر هو الكلام الموزون المقفى ويسمى بالقريض والضربان ينطبقان على الرسول ﷺ فيكون المعنى ما غرسنا فى طبعه إيجاد الشعر ولا تقتضيه جبلته .

« وما ينبغى له » يقول الراغب (فإذا قيل ينبغى أن يكون كذا فيقال على وجهين أحدهما : ما يكون مسخراً للفعل نحو النار ينبغى أن تحرق الثوب .

والثانى : على معنى الإستئهال نحو فلان ينبغى أن يعطى لكرمه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » على الأول فإن معناه لايتسخر ولايتسهل له ألا ترى أن لسانه لم يكن يجرى به)[٣] .

« إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » إن بمعنى ما وهنا أسلوب قصر بإن وإلا « وذكر » الذكر . يطلق ويراد به هيئة للنفس يمكن للإنسان بها

---

(١) الحاقه آية ٤٠–٤٣ .
(٢) التكوير آية ٢٢ .
(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٥٩ .

أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ بيد أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره .

« وقرآن مبين » القرآن : مصدر الفعل قرأ وهو كرجحان وكفران ومعنى القراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل ولا يقال ذلك لكل جمع كقولك قرأت القوم إذا جمعتهم ولا يقال أيضاً للحرف الواحد إذا تفوهت به . وخص هذا المصدر بكتاب الله تعالى المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته المنقول إلينا بالتواتر المتحدى بأقصر سورة منه .

ويطلق لفظ القرآن على مجموعه وعلى كل سورة وعلى كل آية منه . « مبين » شديد الظهور فى الحجة وغيرها .

معنى الآية :

فى تلك الآية رد على فرية ادعاها أهل مكة وهى رميه بأنه شاعر وبأن قرآنه شعر . وهذا الإدعاء يبين جهلهم وغباءهم حيث أنهم لا يفرقون بين الشعر والقرآن فالشعر تعبير عن انفعال والانفعال يتقلب من حال والقرآن وحى ومنهج وصراط مستقيم لا يتبدل ولا يتقلب مواكبة لأهواء أو أغراض ولكنه ثابت يتبع ناموس الله الثابت الذى لا يتغير . فهو يوصل الإنسان بالله ويرد الحياة إلى الله والشعر حين يسمو عن البهرج والتزلف والمدح والهجاء . ويكون فى أعلى صوره يشتمل على الغزل والأشواق الإنسانية فطبيعة الوحى وطبيعة الشعر مختلفتان وما علم الله رسوله الشعر ولا يسهل عليه أن يشعر وما الوحى إلا ذكر وقرآن مبين .

الشعر بين القبول والرد :

لقد وردت أحاديث تبيح سماع الشعر وإنشاءه (فعن عمرو بن الشريد

عن أبيه قال ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء قلت نعم قال : هيه(١) فأنشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت)(٢) .

ولقد كان يتمثل ببعض الأبيات فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (أشعر كلمة تكلمت بها العرب : ألا كل شيء ماخلا الله باطل)(٣) .

ولقد لفت الأنظار إلى أن في الشعر مواعظ يستفيد بها الإنسان فقال (إن من الشعر حكمة)(٤) .

ومن جهة أخرى كان رسول الله ﷺ يردد بعض الأبيات تسلية له وهذه الأبيات إن كان لله فيها ذكر أو ضراعة له عن البراء رضى الله عنه قال (كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو اغبر بطنه يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته أبينا أبينا)(٥).

---

(١) هيه : بكسر الهاء وإسكان الياء وكسر الهاء الثانية والهاء الأولى بدل من همزة وأصلها إيه وهى للاستزادة من الحديث المعهود .

(٢) صحيح مسلم حـ ١٥ ص ١١ .

(٣) المرجع السابق ص١٢ .

(٤) سنن أبي داود حـ ٢ ص٥٩٨ .

(٥) صحيح البخاري حـ ٥ ص ١٤٠ .

ولقد سلك الرسول ﷺ سلوكا عند تلاوته للشعر وهو تزحيفه(١) لما يردده من شعر (فعن الحسن البصرى قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت .

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا : . . . .

فقال أبو بكر يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا(٢) . . . .

قال أبو بكر أو عمر أشهد أنك رسول الله يقول الله تعالى « وماعلمناه الشعر وما ينبغى له وروى البيهقى فى الدلائل أن رسـول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس السلمى أنت القائل :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينه . . . .

فقال إنما هو بين عيينة والأقرع : فقال الرسول ﷺ « الكل سواء »

ولقد روى الأموى فى مغازيه أن رسول الله ﷺ جعل يمشى بين القتلى يوم بدر وهو يقول : نفلق هاما . . . .

فيقول أبو بكر رضى الله عنه متمما البيت :

---

(١) التزحيف : والإسم منه الزحاف بكسر الزاى وهو من مصطلحات علم العروض وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحـــدهما على الآخر بعد أن كان مفصولا .

(٢) البيت لسحيم عبد بنى الحسحاس وصدره عميرة ودع إن تجهزت غاديا . . . .

. . . من رجال أعزة   علينا وهم كانوا أعق وأظلما[١]

وروى عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود[٢])[٣]

ولقد أرسل الصحابة الشعر إلى رسول الله ﷺ فى حديثهم له معلنين الطاعة له عن أنس رضى الله عنه قال جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة ويحملون التراب على متونهم وهم يقولون :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الإسلام ما بقينا أبداً

قال يقول النبى صلى الله عليه وسلم وهو يجيبهم :

اللهم إنه لاخير إلاخير الآخره   فبارك فى الأنصار والمهاجره

ولقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه شعراء يناضلون بألسنتهم ويهجون أعداء الله وهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك فعن أبى هريرة (أن عمر — بن الخطاب — مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ إليه فقال قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبى هريرة فقال أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس قال اللهم : نعم)[٤] .

---

(١) البيت للحصين بن الحمام المرى وهو من شعراء العصر الجاهلى وكان شاعراً مقلا .

(٢) هذا عجز بيت من شعر طرفة بن العبد وهو من معلقته :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالأخبار من لم تزود

(٣) تفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٥٧٤ — ٥٧٦ باختصار .

(٤) صحيح مسلم حـ١٦ ص ٤٥

وينافى هذه الأحاديث حديث آخر وآية من القرآن .

(عن أبى سعيد الخدرى قال بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج [١] إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلىء شعرا) [٢] .

وأما الآية يقول الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالايفعلون) [٣] .

ولقد استدل بعض العلماء بهذين الدليلين على كراهة الشعر مطلقا ولو يسيرا وقال جمهور العلماء هو مباح مالم يكن فيه فحش وقالوا هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح . وهذا هو الصواب .

والذى أراه :

أن الرسول ﷺ سمع الشعر كما سبق . وردده كما مر . وأنشده أصحابه بحضرته . كما فى قصيدة « بانت سعاد » وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده . ومن جهة أخرى فإن الشعر العربى قد تضمن ألفاظا فسرت القرآن واستدل المفسرون بها . فعن طريق الشعر يفهم القرآن وتدرك بلاغته وفصاحته ومعانيه فقد يرد الشعر فيرجح بعض الآراء على بعض فى بيان أمر من القرآن أو معنى للفظ من ألفاظه .

---

(١) العرج : بفتح العين وسكون الراء قرية تبعد عن المدينة بثمانية وسبعين ميلا .

(٢) صحيح مسلم حـ ١٥ ص ١٥

(٣) الشعراء آية ٢٢٤ — ٢٢٦

ومثال ذلك قال تعالى (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) (١) .

فلقد أدلى كل مفسر للقرآن بدلوه : فقال العوفى عن ابن عباس : المراد بقدم من قوله «قدم صدق» الأجر الحسن . وقال مجاهد : الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم . وقال قتاده : لهم سلف صدق عند ربهم . واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التى قدموها كما يقال له قدم فى الإسلام ومنه قول حسان بن ثابت :

لنا القدمُ العُليا إليك وخلفنا   لأولنا فى طاعة الله تابعُ

ومنه قول ذى الرمه :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها
مع الحسب العادى طمت على البحر (٢)

ومثال آخر : قال تعالى (بأيدى سفرة) (٣)

قال ابن عباس فى تفسيرها : هى الملائكة وبه قال مجاهد والضحاك وابن زيد وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ . وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج : القراء . ولقد رجح ابن جرير : القول بأن السفرة الملائكة والسفرة تعنى بين الله وبين خلقه ومنه يقال السفير الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير واستند إلى قول الشاعر :

وما أدع السفارة بين قومى   وما أمشى بغش إن مشيتُ

---

(١) يونس آية ٢
(٢) راجع تفسير بن كثير ج٤ ص ١٨٣
(٣) عبس آية ١٥

وعلى ضوء ذلك يكون معنى قوله تعالى « وما علمنا الشعر وما ينبغى له » لم نعلمه أن ينشأ الشعر. وما ينبغى له أن يأتى به من عند نفسه كما بعثناه أمياً وقد يرد على هذا اعتراض بما روى عن رسول الله ﷺ :

أولا : (كان فى بعض المشاهد وقد دميت إصبعه فقال :

هل أنت إلا إصبع دميتِ وفى سبيل الله ما لقيتِ) (١)

ثانيا : عن أبى اسحاق قال سمعت البراء رضى عنه وجاءه رجل فقال ياأبا عمارة أتوليت يوم حنين فقال : أما أنا فأشهد على النبى ﷺ أنه لم يول ولكن عجلَ سرعان القوم فرشقتهم هوازن وأبو سفيان بن الحارث آخذ برأس بغلته البيضاء يقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب(٢)

درء هذا الاعتراض :

ويمكن دفع هذا الاعتراض بفكرين :

الأول : إن كان قال ذلك أى بسكون التاء فى دميت وسكون التاء فى لقيت . وبضم الباء فى كذب وكسر الباء فى المطلب . وهذا الضبط قد ورد فى روايتين غير الروايتين اللتين معنا . وعلى ضوء هذا الضبط لا يكون هذا من قبيل الشعر فلا يقوم الاعتراض لأنه مخالف للوزن .

الثانى . إن كان قال ذلك بكسر التاء فى دميت ولقيت. وبسكون الباء فى كذب والمطلب . فيكون قد أتى على وزن الشعر . ودرء ذلك أن هذا

---

(١) صحيح البخارى حـ ٤ ص ٢٢

(٢) المرجع السابق حـ٥ ص ١٩٤

وقع منه ﷺ من غير قصد إنشاء الشعر وجرى على لسانه من غير نية لذلك فالشعر ميسر لكل عربي عاصر هذا الزمان وينطقه بالسليقة .

ثم يقول الله تعالى (لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين)

المباحث العربية :

الإنذار : إخبار معه تخويف كما أن التبشير إخبار معه سرور واللام للتعليل ونصب الفعل بعدها ولم يأت بالتبشير لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع .

« حيا » الحياه تستعمل على أوجه .

الأول للقوة النامية الموجودة فى النبات والحيوان . قال عز وجل « إعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها » الثانى القوة : الحساسه وبه سمى الحيوان حيوانا . قال عز وجل « وما يستوى الأحياء ولا الأموات » الثالث للقوه العاملة العاقلة . قال عز وجل « أو من كان ميتا فأحييناه »

وقد ناديت لو أسمعت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى

الرابع . إرتفاع الغم وبهذا النظر قال الشاعر .

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

قال تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم » .

الخامس : الحياة الأخرويه الأبدية وذلك يتوصل إليه بالحياة التى هى العقل والعلم . قال تعالى « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

السادس : الحياة التى يوصف بها البارى فإنه إذا قيل فيه تعالى هو حى فمعناه لا يصح عليه الموت وليس ذلك إلا لله والحياة بإعتبار الدنيا والآخرة ضربان، الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة)(١) .

والمراد من هذه الأوجه لهذه الآية الوجه الثالث وهى القوة الكاملة « ويحق القول على الكافرين » .

تجب كلمة العذاب على الكافرين .

معنى الآية :.

هذا القرآن الذى بعث به الرسول ﷺ لينذر من كان عاقلا ويبشره. فمن استقبله وعمل به فهو حى يعقل ومن أعرض عنه فهو ميت لا يسمع النذير ولا التبشير فالمؤمنون لهم الجنة ووجبت كلمة العذاب على الكافرين.

(أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون واتخذوا من دون الله آلهه لعلهم ينصرون .لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) .

مناسبة هذه الآيات بما قبلها :

لقد سبق الحديث عن القرآن . يقول الله تعالى « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً » ، ومن أهداف القرآن الدعوة إلى التوحيد فدعاهم بالنص القرآنى وهذه الآيات تدعوهم بالفكر إلى التوحيد وتنعى عليهم اتجاههم فى اتخاذ آلهة غير الله .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١٣٨،١٣٩ بإختصار وتصريف

المباحث العربية : —

الهمزه للإنكار والواو عطفت ما بعدها على جملة منفية دخلت عليها الهمزه والتقدير ألم يتدبروا أو ألم يشاهدوا ولم يعلموا علماً يقينا متضمناً للمعاينة والضمير فى يروا يعود على أهل مكه .

« أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً » .

الخلق : أصله التقدير المستقيم ويستعمل فى إبداع الشىء من غير أصل واحتذاء واستعماله الأخير لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى .

« وإنعاماً » مفعول به لخلقنا ولقد تأخر عن الجارين « لهم ومما » للإعتقاد بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا تأخر تبقى النفس متلهفة لمعرفته فيرسخ فى الذهن عند وروده عليها « وأنعام » جمع النعم بفتح النون وتشديدها والنعم جمع لا واحد له من لفظه (النعم : المال الراعى وهو جمع لا واحد له من لفظه وأكثر ما يقع على الإبل وجمعه نعمان مثل جمل وجملان . وأنعام وقيل النعم : للإبل خاصة والأنعام ذوات الخف والظرف وهى الإبل والبقر والغنم)(١) .

« مما » أصلها من وما ، فمن تفيد التبعيض وما إن جعلت اسم موصول يكون عائد الصلة محذوفا تقديره « مما عملته » وحذف عائد الصلة لطول الإسم وإن جعلت مصدريه فلا تحتاج إلى عائد .

«أيدينا» أى بقدرتنا من غير معين ولا ظهير وإسناد الأعمال إلى الأيدى فيه استعاره وهى تغير المبالغة فى الإختصاص والإنفراد بالأحداث .

« فهم لها ما لكون » .

---

(١) المصباح المنير ص ٦١٣ ، ٦١٤

إسمية هذه الجملة تدل على استقرار ملكيتهم للأنعام واستمرارها والجار والمجرور متعلق بـ « ما لكون » أى أن الله تعالى ملكهم إياها فهم يتصرفون فيها .

« وذللناها لهم ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » .

« وذللناها لهم » أى سهلنا لهم انقيادها وسخرناها لهم حتى الطفل يقود الجمل الكبير ويضربه ويوجهه كيف يشاء ولا يند عن طاعته . « فمنها ركوبهم » الفاء لتفريع أحكام التذليل . قرىء بفتح الراء وهذه قراءة العامة وهى بمعنى مركوبهم كما يقال ناقة حلوب أى محلوب ، وقرىء بضم الراء وهذه قراءة الأعمش وابن السميقع وروى عن عائشه أنها قرأت ركوبتهم(١)

« ومنها يأكلون » من لحمانها وسمنها وجبنها ـ « ولهم فيها منافع ومشارب » فيها جار ومجرور متعلق بمنافع ولهم جار ومجرور خبر منافع ومشارب معطوف على منافع وهما ممنوعان من الصرف لأنها على صيغه منتهى الجموع ، والمنافع ، الأصواف والأوبار والجلود وحرث الأرض إلى غير ذلك ، والمشارب الألبان .

« أفلا يشكرون » الهمزه للاستفهام دخلت على جملة محذوفة أينعمون بتلك النعم وهى ملكيتهم للأنعام وتسخيرها فلا يشكرون المنعم على إنعامه فيوحدونه ؟ « واتخذوا من دون الله آلهة » ، هذه الجملة مستأنفة لبيان جحودهم لهذه النعم فبدلا من عبادة الله وحده اتخذوا آلهة من دونه تعالى

« لعلهم ينصرون » لعل ليست للترجى لأن الله يعلم الماضى والحاضر والمستقبل فتفسر على أنها للتعليل . فيكون المعنى لكى تنصرهم .

---

(١) راجع تفسير القرطبى ص ٥٤٩٩ ، ٥٥٠٠

أو أن الترجى من جانب العبيد لا من جانب الله تعالى فيكون المعنى واتخذوا من دون الله آلهة لما يرجون من نصرتها لهم إن حل العذاب بهم .

« لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » .

قوله لا يستطيعون نصرهم . جملة مستأنفة جيء بها لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم وجمع الأصنام بالواو والنون لأنه أخبر عنهم خبر الآدميين « وهم » هذا الضمير للمشركين « ولهم » يعود على الآلهة يقول الإمام الفخر (هذا النص يحتمل معنيين أحدهما : أن يكون العابدون جند لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا .

والثاني : أن يكون الأصنام جند للعابدين وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه لما قال لا يستطيعون نصرهم أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جندا لهم ومحضرون لنصرتهم فإن ذلك دال على عـــدم الإستطاعة فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون فى غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبا ولم يجمع أنصاره)(١) .

المعنى العام للآيات .

أولم يروا آية الله المنظورة بين أيديهم فهى نعمة من الله على البشر فلقد سخر الله لهم الأنعام وذللها يركبونها ويشربون ألبانها ويتداوون ببعض أبوالها . فالصبى يقود الجمل الكبير والرجل لا يجرؤ على الإمساك بالثعبان الصغير فهذه النعمة من قدرة الله وتدبيره يشعر الإنسان أنه مغمور بفيض من نعم الله تعالى فإن جاع يتناول قطعة لحم أو يشرب جرعة لبن أو يأكل قطعه جبن أو سمن . وإن أراد أن يلبس فإنه يلبس ثوبا من شعر أو صوف أو وبر والناس يقابلون تلك النعمة بالكفران ، فلا يشكرون

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ١١٢ ، ١١٣

الله واتخذوا من دون الله أصناما يعبدونها يرجون من عبادتها النصر بينما هم الذين يقومون بحمايتها وخدمتها فلا تنفع ولا تضر فهم لها جند محضرون .

تسلية وشد أزر :

(فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) .

مناسبة هذه الآيه بما قبلها : —

لقد تضمنت الآيات السابقة الإثارة التي أثارها أهل مكة وهي رميه بأنه شاعر وأن القرآن شعر واتخذوا آلهة يقدسونها وهاموا فيها عشقاً مما جعلهم يمدحونها باللسان والجنان ثم جاءت هذه الآية تنهاه عن الحزن على أقوالهم .

المباحث العربية : —

« فلا » الفاء للترتيب فلقد رتبت النهي على ما قبله ، فلقد اتخذ القوم آلهة وامتلأت حناجرهم بإطرائها فلا يحزنك قولهم .

« الحزن » الحزن بضم الحاء وسكون الزاي وبفتح الحاء والزاي : خشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم وهو ضد الفرح .

« إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » جملة إنا نعلم مستأنفه سيقت لتعليل النهي عن الحزن وقدم السر على العلن للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه سبحانه وتعالى بما يخفونه أقدم مما يعلنونه والسر والعلن في نظر الله سواء .

وفي ذكر السر والعلن طباق . و « ما » فيهما يجوز فيها أن تكون موصولة وفي هذه الحالة يكون عائد الصلة محذوفاً ، ويجوز في « ما » أن تكون مصدريه ويكون المصدر مفعولا بنعلم .

معنى الآية :

لا تغتم يا محمد على قولهم فنحن نعلم سرهم وعلنهم فنجازيهم بجميع جناياتهم الخفية والبادية .

قضية البعث ودليل وقوعه :

(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم . قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون)

سبب نزول هذه الآيات :

(أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففتته فقال : يا محمد : أيبعث هذا بعدما أرم ؟ قال نعم : يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » إلى آخر السورة)(١)

ولقد وردت روايات أخرى بأن الذى فعل ذلك هو عبد الله بن أبى وهذه الرواية عن ابن عباس وقال الحسن هو أبى بن خلف الجمحى .

---

(١) أسباب النزول للسيوطى ص ١٤٥

مناسبة الآية بما قبلها :

لقد اشتمل السباق على اتخاذ أهل مكة آلهة من دون الله يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى درجاً على مادرج عليه آباؤهم ومع الكفر دأبوا على ارتكاب المعاصى فكرهوا أن يكون بعد الدنيا بعثا وحسابا فقال قائلهم يامحمد أيبعث هذا بعدما أرم ؟ ولقد سأل بعضهم هذا السؤال.

قال تعالى(سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس لهم دافع)(١) وقالوا (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) .

المباحث العربية :

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة » .

هذا كلام مستأنف سيق لبيان بطلان إنكار القوم للبعث ، والإنسان لفظ عام يعم جنس البشر والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص سبب النزول وسمى الإنسان إنسانا لأنه خلق خلقا لاقوام له إلا بأنس بعضهم ببعض ولهذا قيل الإنسان مدنى من حيث لاقوام لبعضهم إلا ببعض ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه وقيل سمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بكل ما يألفه وقيل هو إفعلان وأصله إنسيان وسمى بذلك لأنه عهد إليه فنسى.

« النطفة » فى الأصل الماء الصافى والمراد بها أنه خلق من ماء قذر خسيس .

« فإذا هو خصيم مبين » الفاء عطفت ما بعدها على الجملة المنفية قبلها

---

(١) المعارج آية ١ ، ٢

فتكون قد دخلت بهذا العطف فى حيز الإنكار والتعجب فكأنه قيل أولم ير الإنسان أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خلقه خصومته وإذا تأملنا هذا النص وجدنا حلقات من سلسلة التطور الطبيعى للإنسان قد اقتطعت وهى طور العلقة والمضغة والعظام وكسوها ثم إنسان سوى ثم خروجه ومرحلة الطفولة المبكرة ومرحلة الطفولة المتأخرة والمراهقة . لقد أتت كلمة من نطفة ثم وردت إذا الفجائية بكونه خصيما مبينا وحذف مابين الاثنين إعتماداً على ماسبق فى سورة المؤمنون .

« خصيم مبين » صيغتا مبالغة أى شديد الخصومة أى المجادلة بكلام الله ونواميسه وهو شديد الظهور فى المجادلة . وهنا لفتة أنه أصبح ناطقا يعبر عما يجيش بنفسه ثم يجادل فى البعث وعمى عن بدئه « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم » .

(أى أورد فى شأننا قصة عجيبة فى نفس الأمر هى فى الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهى إنكار إحيائنا العظام أو قصة عجيبة فى زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار وهى إحياؤنا إياها أوجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم)[1]

« وهى رميم » الواو للحال والجملة حالية وصاحبها العظام .

« الرميم » الرم : إصلاح الشىء البالى والرمة تختص بالعظم البالى ولم يؤنث الرميم رغم وقوعها خبراً لمؤنث لأنها اسم وليست صفة .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ صـ ٥٢٥

الأدلة على البعث :

لقد وردت فى هذه السورة أدلة على البعث هى أقيسة على بعض الأمور المشاهدة وهذه الأقيسة هى :ـ

١ — قياس الإعادة على البدء . قال تعالى : قل يحييها ، إلخ

الخطاب للرسول ﷺ قل تخريساً وتبكيتاً لهذا الكافر يخلقها ويحييها الذى أوجدها من العدم فى أول وجود لها ، وهو عليم بكل الخلق ويبدع فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء .

ولقد ورد هذا القياس فى آيات أخر مثل قوله تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده)(١) وقوله (أفعيينا بالخلق الأول)(٢)

٢ — قياس الإعادة على خلق النار من الشجر الأخضر بجامع القدرة على تبديل الأعراض فى كل وهو أشبه بأن يكون من قياس التمثيل أو أو المساواة . قال تعالى (لذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) .

الذى بدل من اسم الموصول السابق فى « الذى أنشأها » يقول القرطبى (أى أن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان فأخرج الله منه النار فهو القادر على إخراج الضد من الضد وهو على كل شىء قدير .

ويعنى بالآية ما فى المرخ والعفار وهى زنادة العرب ومنه قولهم فى

---

(١) الروم آية ١١
(٢) ق آية ١٥

كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار فالعفار الزند وهو الأعلى والمرخ الزنده وهى الأسفل يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى البعض فتخرج منهما النار وقال « من الشجر الأخضر» ولم يقل الخضراء وهو جمع لأنه رده إلى اللفظ)(١) .

قرىء الأخضر مراعاة للفظ وقرىء الخضراء مراعاة للمعاناة ولقد نظر العلماء نظرة علمية إلى هذه الآية وقالو إن النبات يخزن طاقة من الشمس حتى إذا جف وأوقد فيه فإنه يعطى الطاقة التى اكتسبها .

٣ — قياس الإعادة على خلق السموات والأرض قياساً أولوياً قال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) . الهمزة للإنكار والنفى أى أليس الذى خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما بقادر على أن يخلق مثلهم فى الصغر . « بلى » هذا جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الإستفهام الإنكارى من تقرير مابعد النفى وإيذان بتعين الجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام والواو عطفت الخلاق على ما يفيد الإيجاب أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم .

هل وقع بعث فى الدنيا ؟

جير(٢) : لقد وقع بعث وكان ميدانه الإنسان والطير والحيوان ولقد ساق القرآن الكريم ذلك فى عدة مواقع من نصوصه .

---

(١) القرطبى ص ٥٥٠٣ ، ٥٥٠٤ .
(٢) جير : نعم .

أولا :

قال تعالى (وإذ قتلتم نفساً فادا رأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضهما كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون).

هذا حدث ساقه الله تعالى فى سورة البقرة من الآية ٦٧ — ٧٣

ثانياً :

قال تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون)(١).

يقول الحافظ بن كثير (ذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل إستوخموا(٢) أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فراراً من الموت إلى البرية فنزلوا وادياً أفيح فملأوا مابين عدوتيه(٣) فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فمر بهم نبى الله حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمرهم أن يقول أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى. فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض ثم أمرهم فنادى : أيتها العظام، إن الله يأمرك تكتسى لحماً وعصباً وجلداً فكان ذلك وهو يشاهده ثم أمرهم فنادى أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره.

---

(١) البقرة آية ٢٤٣

(٢) بلدتهم لم توافقهم بسبب الوباء.

(٣) أفيح أى واسعاً. وعدوة الوادى بضم العين : أى جانبه

فقاموا أحياء ينظرون ، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون سبحانك لاإله إلا أنت)[١] .

ثالثاً :

قال تعالى (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير)[٢] .

ولقد اختلف المفسرون فى المار فقال الإمام على هو عزير وحكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس وذهب إلى هـذا قتادة والسدى وسليمان بن بريدة وهذا الرأى هو المشهور .

وقيل إنه الخضر عليه السلام وقيل هو حزقيل بن بورا وقيل هو رجل من بنى إسرائيل .

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها .

رابعاً :

قال تعالى (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٤٤٠ بتصريف
(٢) البقرة آية ٢٥٩

ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم)(١) .

هذا السؤال من إبراهيم لم يكن مصدره الشك ولكن من قبيل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة مالا يفيده الإستدلال ودليل ذلك حين قال الله له « أو لم تؤمن » فأجابه بلى ولكن ليطمئن قلبى ولقد نفى الرسول ﷺ الشك عن إبراهيم بقوله (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)(٢) .

ومعنى الحديث إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك . ولقد أخذ إبراهيم الطيور الأربعة هى الغرنون والطاووس والديك والحمامة وقيل أخذ وزاً ورألاً — فرح النعام — وديكا وطاووساً ثم أمره الله بقوله فصرهن إليك أى أوثقهن ثم قام بذبحها وتقطيعها وخلط اللحوم بعضها على بعض ثم وضع على كل جبل جزءاً من اللحوم المخلوطة ثم قال له « أدعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » .

وقال يأتينك سعياً ولم يقل طيرا لأن ذلك أدل فى القدرة من الطيران وختمت الآية بأن الله عزيز حكيم أى غالب لا يأبى عليه شيء حكيم أى عالم بكل شيء .

ثم قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)(٣) .

---

(١) البقرة آية ٢٦٠
(٢) البخارى جـ٦ ص ٣٩
(٣) البقرة آية ٧٢ ، ٧٣

« إنما أمره » أى شأنه ، إذا أراد شيئاً من الأشياء « أن يقول له كن
أى أن يعلق به قدرته « فيكون » فيوجد من غير توقف على شىء آخر
ويجوز فى فيكون النصب عطفاً على قوله « يكون » «فسبحان الذى بيده
ملكوت كل شىء » والفاء إشارة إلى أن ما فصل من شئونه تعالى موجب
لتنزهه أكمل إيجاب وملكوت مبالغة فى الملك لأن المعنى يزيد بزيادة
حروف الكلمة كرحموت .

« وإليه ترجعون » وإليه تردون لا إلى غيره .

معنى الآيات :

إذا أراد الله شيئاً سماويا أو أرضيا أو فى هذا الوجود الذى عبر عنه
بعد ذلك بملكوت صغر هذا الشىء أو أكبر فلا يصعب على الله تعالى .

فتوجه الإرادة لخلق الشىء كاف وحده لوجوده كائنا ما يكون فتنجيز
الشىء بين الكاف والنون فتنزه الله عما يجول بخواطر البشر من إيجاد الله
للأشيا. وإعدامها فلقد قرب لعقولهم ذلك بأنه إذا أراد شيئا أن يقول له
كن فيكون .

تتمه :

ذكر الإمام عبد الله محمد بن أحمد القرطبى فى كتابه الجامع لأحكام
القرآن (وفى كتاب أبى داود عن معقل بن يسار قال : قال النبى ﷺ
« اقرءوا يس على موتاكم » .

وذكر الآجرى من حديث أم الدرداء عن النبى ﷺ قال : « ما من
ميت يقرأ عليه سورة يس إلا هون عليه » .

---

(١) البقرة آية ٧٢ . ٧٣

وفى مسند الدرامى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ سورة يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له فى تلك الليلة » . خرجه أبو نعيم الحافظ .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها ألا وهى سورة يس . تدعى فى التوراة بالمعمة . قيل : يارسول الله ما المعمة ؟ قال : « تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية » .

قيل : يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال : تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدق بها فى سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رأفة وألف هدى ونزع عنه كل داء وغل » ذكره الثعلبى من حديث عائشة والترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه مسندا .

وفى مسند الدرامى عن شهر بن حوشب قال قاله ابن عباس : من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسى ومن قرأها فى صدر ليلته أعطى يسر ليلته حتى يصبح .

وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : لكل شىء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهارا كفى همه ومن قرأها ليلا غفر ذنبه . وقال شهر بن حوشب : يقرأ أهل الجنة « طه » « يس » فقط . رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردى . وقال يحى بن كثير بلغنى أن من قرأ سورة « يس » ليلا لم يزل فى فرح حتى يصبح ومن قرأها حين يصبح لم يزل فى فرح حتى يمسى . وقد حدثنى من جربها .)[1]

---

(١) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن ص ٥٤٤٥ — ٥٤٤٦

سورة الصافات

سورة مكية نزلت بعد سورة الأنعام وعدد آياتها اثنتان وثمانون ومائة .

فهي سورة فواصلها قصيرة . ومشاهدها كثيرة ، ومواقفها متنوعة . وأهدافها متباينة منها :

أولا : غرس التوحيد فى النفوس وتخليصها من شوائب الشرك فى كل صوره وأشكاله .

ثانياً : ناقشت قضية البعث وسيق فيها أدلة وقوعه .

ثالثا : ساقت مشاهد مما يقع فى النار ومن واقع الجنة .

رابعا : ساقت هذه السورة قصصا يخدم تلك الأهداف فساقت جانبا من قصة نوح وإبراهيم ، وموسى وهارون ، وإلياس ولوط ويونس .

خامسا : ناقشت صورة من صور الشرك لدى أهل مكة وهى عقيدتهم أن الملائكة بنات الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

(والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكر * إن إلاهكم لواحد) .

كانت عبادة الأصنام هى السائدة بين المكيين والوثنيـــة هى الديانة الغالبة فى جزيرة العرب والقرآن دعاهم بأن ينبذوا الأصنام التى هاموا بها عشقا . ودفعهم هذا إلى أن ينحروا لها الأنعام تقربا وأن يسجدوا لها تذللا وهى جلاميد صخر من صنيعهم ولما كانت عقولهم تحيا فى ديجور

الوثنية أقسم الله تعالى بالصفات والزجرات والتاليات الذكر بأن إلاههم لواحد فهو رب واحد وليس أربابا متعددة .

وهذه الآيات أوصاف : إما لشيء واحد وهو الملائكة فإنها تقف صفاً واحداً في السموات كما أخبر الله عنهم (وإنا لنحن الصافون)(١) ولقد جعلها بعض الصحابة أوصافاً لمسمى واحد (عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال « والصافات صفا ، وهى الملائكة « فالزاجرات ، هى الملائكة « فالتاليات ذكراً ، هى الملائكة . وكذا قال ابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدى وقتادة والربيع بن أنس الملائكة صفوف فى السماء)(٢) .

ويكون المعنى : أن الملائكة يقفون صفوفا فى السموات أو عند العبادات أو أنهم يصفون أجنحتهم فى الهواء فى انتظار ما أمر به الله تعالى .

أو أنهم فى درجات متفاوتة فى الفضيلة والقرب من الله تعالى والشرف وذلك يشبه الصفوف والملائكة أيضا تتصف بالزجر . يقال زجرت البعير فأنا أزجره إذا أحثثته للسير وهو فى جانب الإنسان نهى وهـذا المعنى فى جانب الملائكة هو أنها تزجى السحاب أى تسوقه من موطن إلى موطن أو أنهم ينهون بنى البشر عن معصية الله بالإلهام أو أنهم يزجرون الشيطان عن التعرض لبنى آدم بالشر والإيذاء ، والملائكة أيضا تتلوا الذكر أى القرآن أو المراد بالذكر التسبيح والتحميد والتكبير والتقديس والتهليل .

---

(١) الصافات آية ١٦٥

(٢) تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٣

المباحث العربية فى الآيات :

صفا وزجرا مصدران مؤكدان للصف والزجر ومفعول الصافات أنفسها أى الصافات أنفسها أو أقدامها أو أجنحتها ومفعول الزاجرات أى السحاب أو الشياطين أو البشر وزجرا مصدر مؤكد لأن التاليات بمعنى الذكر أو هو مفعول التاليات ، وإما أن تكون هذه الأوصاف لمسميات متباينة كالجماعة التى تؤدى الصلاة فى صفوف منتظمة أو الطائفة المجاهدة تتأهل للجهاد فتقف فى صفوف مستوية . أو جماعة الطير تقف صافة أجنحتها فى السماء قال تعالى :

(ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون)(١) .

وقال تعالى (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير)(٢) .

والزاجرات جماعة العلماء تزجر الناس فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر .

والتاليات إما جماعة العلماء أو غيرها .

والترتيب فى (هــذه الصفات إن أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتيبها فى الفضل وإما يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو

---

(١) النور آية ٤١
(٢) الصافات آية

للدلالة . على ترتيب الموصوفات فى مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهـــر فضلا أو على العكس)[١] .

لقد احتملت الآية وصفا بالملائكة بجمع المؤنث السالم فى الصافات والزاجرات والتاليات ووصف الملائكة بالأنوثة تحقير لشأنها وفى بنى البشر قد يكون وصف الأنثى تعظيما للأنثى . ألا ترى أن الله قد جعلها سكنا للزوج وتلد الرجال والنساء والعظماء .

قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[٢].

ويمكن درء وصف الملائكة بجمع المؤنث السالم بما يأتى .

١ — أن الصافات جمع جماعة يقال جماعة صافة . فلفظ جماعة مؤنث يجمع جمع مؤنث بالألف والتاء .

٢ — لفظ ملائكة ملحق به علامة التأنيث ولا يلزم من ذلك التأنيث الحقيقى والتأنيث لفظى . فالملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا خناثا . فهم خلق من نور وفطرهم الله على الطاعة قال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[٣] .

يقول الفخر الرازى (إن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم

---

(١) تفسير أبى السعود على هامش مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ٥٣٢
(٢) الروم آية ٢١
(٣) التحريم آية ٦

يجمع على صافات والثانى أنهم مبرؤن عن التأنيث المعنوى أما التأنيث فى اللفظ فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع ان علاقة التأنيث حاصلة فى هذا)[١] .

القسم فى هذه الآيات :

القسم فعله رباعى أقسم وهو بمعنى حلف وهناك معنى آخر هو تالى بمعنى حلف فأركان القسم ثلاثة مقسم بضم أوله وكسر ثالثة ، ومقسم به بضم أوله وفتح ثالثه ومقسم عليه بضم أوله وفتح ثالثه أيضا .

فالمقسم هو الله والمقسم به هو الملائكة أو المصلون أو المجاهدون كما سبق ومقسم عليه هو كونه واحـــدا . ولقد أقسم الله تعالى ببعض المخلوقات كالملائكة والشمس والقمر والنجم والضحى والخيل المجاهدة فى فى سبيل الله العادية فى الصباح والرياح والطور والقلم والنفس البشرية وأقسم بحياة نبينا محمد ﷺ كما قال تعالى :

(لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون)[١] .

ولقد أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات لما يأتى :

١ — تعظيما لشأنها فحين يقسم بها يكون تشريفا لعظم خلقها كما فى القسم بنبينا رسول الله ﷺ .

٢ — لفت الأنظار إليها والتأمل فيها ، وأن الله تعالى سخرها لنا فهى نعم تفضل بها على خلقه فيصل المتأمل فيها إلى خالقها جل جلاله وعم نواله .

---

(١) مفاتيح الغيب ﺣ ٧ ص ١١٩

(٢) الحجر آية ٧٢

درء شبهتين :

الأولى: لقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الطريقة المثلى فى الحلف وهو أن المسلم لا يحلف بأبيه أو شىء آخر وإذا أراد الحلف يحلف بالله أو يصمت (عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب يحلف بأبيه فقال : ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[1] .

فكيف ينهى الرسول ﷺ عن الحلف بغير الله ونهيه هذا وحى ثم يحلف الله بهذه المخلوقات ؟.

للعلماء قولان :

(الأول: قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه :

١ — أنه ﷺ نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله .

٢ — أن الحلف بالشىء فى مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لا يليق الا بالله .

٣ — أن هذا الذى ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به فى بعض

---

(١) البخار حـ٨ ص١٦٤

السور وهو قوله تعالى: «والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها ونفس وما سواها»[١] .

والقول الثانى : قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه :

١ — أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل .

٢ — أنه تعالى قال والسماء وما بناها فعلق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالبانى للسماء فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار فى موضع واحد وأنه لا يجوز .

٣ — أنه لا يبعد أن تكون الحكمة فى قسم الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة فى القسم بها التنبيه على جلالة درجتها وكمال درجاتها والله أعلم)[٢] :

فالإمام الفخر ساق القولين وأدلة كل فريق وأمسك عن الترجيح .

فالرأى الأول: يفيد بأن المقسم به هو الله والتقدير ورب الشمس ورب القمر وأقاموا الأدلة الآنفة على ذلك بأن الرسول ﷺ نهى عن الحلف بغير الله تعالى ، وأن الحلف بها تعظيم وهذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى وأنه ورد قسم بالله (والسماء وما بناها) .

---

(١) الشمس آيه ٥ — ٧

(٢) مفاتيح الغيب حـ٧ ص ١٢١

والرأى الثانى : يفيد بأن القسم وقع بتلك الأشياء بحسب ظاهر اللفظ كما علمت وأقول :

إن أصحاب الرأى الثانى أصابوا لما يأتى :

إن الله تعالى يحلف بما يشاء وشتان بين أيماننا و أيمان الله تعالى فهو يحلف بما شاء من خلقه فهى من صنيعه والصانع حين يعظم صنعته لا يقتضى أن تعظيم هذه الصنعة يصل أو يضارع عظمة مبدعها وتعظيمه لها حين يحلف بها يلفت أنظار المخاطبين للتأمل فى هذه المخلوقات البديعة التى تنبىء عن عظمة خالقها . والقسم الوارد فى قوله تعالى قسم بالسماء وقسم بيانيها على سبيل العطف فالخلق لا يحلفون إلا بالخالق وهو يحلف بما شاء من مخلوقاته بالإنسان وبالشمس والقمر إلى غير ذلك .

الثانية :

القسم فى هذا الموطن عديم الفائدة : لأنه يريد إثبات التوحيد لدى المؤمن أو الكافر وإثباته لدى المؤمن باطل لأنه مقر به من غير قسم وإثباته لدى الكافر باطل أيضا لأنه لا يومن به بحلف أو غير حلف والحلف على أنه واحد والحلف على أن يوم القيامة حق كما فى الذاريات من غير أدلة لا يليق بالعقلاء .

درء هذه الشبهة :

أولا أن الله تعالى ساق الأدلة على وحدانيته وعلى البعث فى كثير من سور القرآن مثل قوله تعالى (قل الحمـــد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون * أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلاه مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا

وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أ إلاه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إلاه مع الله قليلا ما تذكرون * أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أ إلاه مع الله تعالى الله عما يشركون * أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إلاه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون * بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم منها فى شك بل هم منها عمون * وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هـذا إلا أساطير الأولين * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) (١) وقوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) (٢) .

لقد ساق الله هذه الأدلة وأضرابها فى كثير من سور الذكر الحكيم ثم قررها بذكر القسم تأكيدا لما تقدم وبهذا الأسلوب يكون القرآن قد جاء جريا على الطريقة المألوفة لدى العرب وهى إثبات المطالب بالحلف باليمين .

ثانيا : إن قولهم الأصنام آلهـة ينبىء عن ضآله عقولهم وضحولة أفكارهم فقابل هـذا بأقل الأدلة وهـو الحلف بالله فهذا يكفى فى إبطال ما ذهبوا إليه .

---

(١) النمل آيه ٥٩ — ٦٩

(٢) الأعراف آية ٥٧

ثالثا : لقد أقسم الله بهذه الأشياء على كونه واحدا ثم أعقب ذلك بما هو دليل يقيني وهو كونه خلق السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق فهذا خلقه ولم يدع أحد خلقه له فهو المنفرد بخلقها وهو ربها الذى تفضل عليها باستمرار وجودها .

الأدلة الكونية على وحدانيته تعالى :

(رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) . هذا دليل يقيني قائم على التفكر أعقبه الله بعد دليل القسم على وحدانيته بأنه مالك السموات ومافيها والأرض وماعليها وما تحت الثرى ومالك لما بينهما وبيده المشارق والمغارب ولقد ساق السموات والأرض وما بينهما والمشارق لأن الله أنعم على بنى آدم بهذه المخلوقات فالنعم كلها تفضل بها على الإنسان من هذه المخلوقات فمصدر هداية الإنسان ومعرفته بربه يأتى من جهة السموات وحياة الإنسان متعلقة بهذه الأرض وهذا معروف لكل عاقل ومصدر النور يأتى من المخلوقات التى بين السموات والأرض كالشمس والقمر والنجوم والمشارق والمغارب فيها النعم فحملت هذه الآية دليلين : الدليل الأول هذه المخلوقات آيات على وحدانية موجدها ولم يدع أحد ملكيته لها مع الله فلو كانت مملوكة لأكثر من إله لما استمر وجودها ولما سدرت حركاتها . قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (١) الدليل الثانى : لفت أنظارهم إلى أن الله سخر لهم هذه المخلوقات فمن افترى شريكا مع الله فقد جحد نعمة الله فليس لديه حياء من المنعم .

ورب بدل من واحد أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ومعنى الرب مالك ويكون بمعنى التربية والإصلاح والسر فى إعادة لفظ الرب مع المشارق

---

(١) الأنبياء آية ٢٢

إن آثار الربوبية فى المشارق أظهر لتجددها كل يوم . والمشارق (ثلثمائة وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم فى مغرب منها) (١) .

نظرة علمية :

تدل هذه الآية على حركة الأرض ودورانها حول نفسها أمام الشمس بثلثمائة وستين مشرقا كل يوم وننظر نظرة أبعد من هذه النظرة هى أن فى كل حركة أثناء دوران الأرض يظهر جزء من الأرض أمام الشمس ويختفى جزء آخر فيكون ظهور هذا الجزء أمام الشمس مشرقا له والجزء الذى يختفى ويأتى عليه الظل والظلام يكون مغربا . وهذا سر الجمع فى المشارق وهذه النظرة من الإشارات العلمية التى تومىء بحركة الأرض ولو قال القرآن إن الأرض تدور لما صدق بذلك العرب الذين عاشوا فى البيداء .

درء مايوهم التناقض بين هذه الآيات وغيرها :

لقد وردت آيات تضمنت إفراد المشرق والمغرب وآيات تضمنت تثنيتهما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) (٢) وقال تعالى (رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) (٣) فلقد أفرد فى المزمل مراعاة للإفراد الذى قبله فالحديث عن الرسول ﷺ مناسب أن يأتى بالمشرق مفردا وأراد مشرق الشمس ومغربها فى الصيف ويرجح ذلك قوله تعالى (إن لك فى النهار سبحا طويلا) (٤) فمعنى السبح

---

(١) تفسير أبى السعود بها مش مفاتيح الغيب حـ٧ ص ٥٣٣
(٢) المزمل آية ٩
(٣) الرحمن آية ١٧ ، ١٨
(٤) المزمل آيه ٧

الفراغ أو التطوع ولما وصفه بالطول لزم طول وقته وهو النهار والنهار يطول فى الصيف . فيكون المراد مشرق الشمس فى الصيف وكذلك المغرب . ولقد ثنى فى الرحمن مراعاة للتثنية فى يسجدان وفى فبأى آلاء ربكما تكذبان وأراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما . وجمع فى الصافات فى هـــذه الآية التى معنا مراعاة للجمع قبلها فى الصافات والزاجرات والتاليات والسموات وأراد مشرق كل جزء تأتى عليه الشمس وجمع فى المعارج مراعاة للجمع قبله . وهـذا الأسلوب أتى بما يواكب الأساليب العربية من الإفراد والتثنية والجمع والذكر والحذف والإيجاز والإطناب.

السر فى حذف المغارب :

لقد ذكر الله تعالى المشارق وأرادها هى والمغارب وهذا الأسلوب فيه حذف واكتفاء كما فى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) (١) يريد سرابيل تقيكم الحر والبرد فأراد فى الآية التى نحن بصدد الحديث عنها المشارق والمغارب وآثر حذف الثانى دون الأول. لأن شروق الشمس سابق على غروبها ولأن النعمة فى الشروق أظهر من الغروب والغروب لم يعر عن النعم ففيه السكن وراحة البدن ولقد استدل إبراهيم عليه السلام بقوله (إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) (٢)

(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ◦ وحفظاً من كل شيطان مارد) .

هذا دليل آخر على وحدانيته تعالى وتصرفه حسب إرادته وفيه معنى الدليلين السابقين فوجود السماء الدنيا بزينتها لا يقدر على إيجادها هكذا إلا الله الواحد . وفيه التأمل فى هذه النعمة وهى أن الناس يهتدون بها فى دياجير

---

(١) النحل آيه ٨١
(٢) البقرة آية ٢٥٨

الظلام قال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) (١) وأرصدها الله حرسا من الشياطين المارده التى تسترق أسرار السماء وهذا الحفظ وقع مع بعثة الرسول ﷺ تكريما له ولأمته وصونا لرسالته يقص القرآن طرفاً من حياة الجن . قال تعالى (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ⁕ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ⁕ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) (٢)

وتزوين السماء جعلها حسنة المنظر بادية الجمال . يشعر بهذا الجمال من رمى ببصره صوبها فى ليلة أسدل الظلام أستاره وعزفيها بزوغ قمرها فيراها كأنها قطعة قماش سوداء عليها ملايين الدرالمنثور غير المنتظم ولقد أعطى النص هذا الإبداع والدنيا مؤنث الأدنى والزينة ليست فى السماء فالنجوم ليست فيها بل فى جهتها . وبقراءة زينة بالتنوين وجر الكواكب تكون الكواكب عطف بيان أو بدل . وإذا كانت بغير تنوين وجر الكواكب تكون إضافة بيان أو أنها مصدر مضاف لفاعله أو مفعوله وقرأ أبو بكر بتنوين زينة ونصب الكواكب وإعراب الكواكب أن تكون الزينة مصدرا وفاعله محذوف تقديره بأن زين الله الكواكب فى كونها مضيئة حسنة أو أن تكون الزينة أسماء لما يزان به فتكون الكواكب منصوبة بإضمار أعنى ، وحفظاً ، العامل فيه النصب فعل مقدر أى حفظناها بالشهب أو أن حفظاً معطوفا على زينة بأعتبار المعنى والجار والمجرور متعلق بهنا الفعل المقدر .

---

(١) النحل آية ١٦
(٢) الجن آية ٨—١٠

وهذه الآية تعطى معانى ثلاثة :

١ — أنها زينه للسماء تنبىء عن إبداع صانعها .
٢ — أن الناس يهتدون بها فى ظلمات الليالى .
٣ — هى صواعق لـكل شيطان عات خارج عن الطاعة فهى تـكن
أسرار السماء من الشياطين (**لا** يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من
كل جانب ٭ دحوراً ولهم عذاب واصب ٭ إلا من خطف الخطفة فأتبعه
شهاب ثاقب) .

الملأ الأعلى : الملائكة فى السماء ـ يقذفون : يرمون : من كل جانب :
من كل الآفاق أى من كل جهة ـ دحوراً : مصدر دحره أى طرده وهو
مفعول لأجله أو هو حال بمعنى مدحورين عذاب واصب : أى دائم من
وصب يصب بالـكسر أى دام — خطف الخطفة — اسم مرة وهو بمعنى
اختلاس كلام الملائكة مسارقة. الشهاب الثاقب : جـــزء من نجم يثقب
الشيطان فيحرقه . الثاقب أى المضىء أو المستوقد .

هذا كلام مستأنف سيق لبيان أحوال الشياطين بعد حفظ السماء فإذا
استهوتهم أنفسهم للاستماع إلى الملائكة فى السماء يرمون من كل جهة كأن
الشهب أرصدت لقذفهم فيدحرون أى يطردون فإن اختلس واحد منهم
كلمة وأخذها بسرعة تبعه شهاب يحرقه فيثقب جسده أو يخبله فيحيا حياته
معذبا من الألم الذى لحقه وفى الآخرة له عذاب دائم **لا** ينقطع . وهؤلاء
المردة يستمعون فيأخذون بعض الـكلمات من الملأ الأعلى خلسة . وعدى
يسمعون بإلى مع أنها تتعدى باللام لأنها تتضمن معنى الإصغاء . فهم يستمعون
لبعض الـكلمات فالنص لا يفيد انتفاء سمعهم مطلقا ولـكنهم يستمعون إلى
بعض الـكلمات فيقع لهم . فتشديد الميم يدل على نفى كثرة السماع

والاستثناء الوارد فى قوله إلا من خطف الخطفة يدل على ذلك « من » مستثنى فإما يكون بدلا من الواو فى يسمعون فيكون فى محل رفع لأن الاستثناء غير موجب وإما أن يكون منصوبا على أصل الاستثناء . ويجوز أن تكون شرطية وجوابها فأتبعه أو موصولة وخبرها فأتبعه ويكون استثناء منقطعا .

درء شبهة :

حين يتقدم الشيطان لاستراق السمع فيتبعه شهاب ثاقب فيترتب على ذلك أن ينزل جزء من نجم من موطنه على هذا الشيطان . والنجم قد يفوق الأرض ألف مرة فيقع اضطراب بين الكواكب والنجوم أو يترتب على ذلك زوال النجم لأنه فى نقصان مستمر .

وتدرأ هذه الشبهة بما يأتى :

إن الشيطان حين يسترق السمع فيفصل جزء ملتهب من النجوم فيحرق الشيطان والنجم باق على حاله كمثل النيران يؤخذ منها قبس ويؤيد هذا قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير)(١) .

فالرجم كما قال صاحب مختار الصحاح (الرجم : القتل وأصله الرمى بالحجارة)(٢) فحين يقول الله تعالى (رجوما) يكون المعنى أن جزءاً من النجم يفصل ويقذف به الشيطان كالحجر فهو جزء من الجبل ، والشيطان

---

(١) الملك آية ٥
(٢) مختار الصحاح ص ٢٤٦

يعـــلم أنه سيصاب إن استرق السمع فلماذا يصعد ويعاود الصعود ؟ إنه يصعد ويعلم الأخبار فيفتن بها ذرارى آدم ويرجو مع ذلك النجاة من الشهاب . فراكب البحر يسافر ويركب متن سفينته ، ويرى الغرق بعينه ومع ذلك يعاود السفر فى البحر لأنه يريد المال ويرجو السلامة .

سؤال قريش لبيان سهولة بعثهم :

(فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب) هذه الآية تقرع آذان أهل الشرك لتضحض حجتهم التى افتروها فهم يستبعدون إعادتهم مرة أخرى فى يوم القيامة وسر استبعادهم للبعث أمران .

الأول : أنهم عبدوا غير الله تعالى ووقعوا فى الآثام ، وثقلت كواهلهم من الأوزار التى حملوها فيخافون لقاء الله تعالى فيحاسبهم .

الثانى إنهم قد غرقوا فى نعيم الدنيا فهم عمروا دنياهم وأخربوا آخرتهم فلم يعملوا لها شيئا ولم يدخروا لأنفسهم زادا يستعينون به على وعثاء سفرهم فكرهوا البعث .

من هنا أثاروا الشبه فى سبيل القرآن الذى يذكرهم بالبعث ويوم القيامه . فمن حجتهم على استبعاد البعث قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون) (١)

وقول القرآن عنهم (ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد)(٢)

---

(١) الصافات آيه ١٦ ، ١٧
(٢) ق آية ١ — ٣

واستهدفوا من وراء كلامهم أن الإنسان يصير ترابا فكيف يبعث بعدفناء كل عضو وصيرورته ترابا ورد الله عليهم بأمرين :

الأول : قوله لرسوله فسلهم واستخبرهم أهؤلاء المنكرون المشركون أقوى خلقة . وأمتن بنيه وأصعب واشد خلقاً وإيجاداً أم من خلقنا من الملائكة والسموات والأرض ومافيهما وهذا يفحمهم لأن المشاهدة تدل على أنهم أقل خلقة من السموات والأرض فحجتهم داحضة ولم ينتظر منهم جوابا بالوضوح أن خلق السموات والأرض ومافيهما أصعب وأشق من خلقهم . والإستفهام يحتمل أن يكون للتقرير أو للتوبيخ والأولى أن يكون للتوبيخ لأنهم فى مقام المنكر وهناك قراءتان فى أم من خلقنا بتشديد الميم فتكون أم متصـــلة عطفت من على هم وقرىء بتخفيفها . فيكون استفهاما .

الثانية : أمن خلقنا فتكون الهمزة للاستفهام ومن مبتدأ وخبره محذوف تقديره أشد فيكون المعنى أى الذين خلقناهم أشد وأتى بمن التى للعقلاء دون ما للتغليب أى غلب العقلاء على غيرهم لشرفهم «لازب» بمعنى اللاصق باليد .

الثانى : إن كنتم ترتابون فى بعثكم فقد بدأ خلق اصلكم وهو آدم من طين يلتصق باليد وهذا تحقير لشأنهم لتكبرهم ألا ترى أن الطين إذا صار حمأ يفر منه الإنسان لرائحته الكريهه . واقد جعلهم الله مخلوقين من طين مع أن المخلوق من الطين آدم لأنه أباهم ولهم نصيب منهذا أو(أن الحيوان إنما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد . من الدم فالحيوان إنما يتولدمن الدم والدم إنما يتولد من الغذاء والغذا إما حيوانى وإما نباتى اما تولد الحيوان الذى صار غذاء فالكلام فى كيفية تولده فالكلام فى تولد الإنسان فثبت ان الأصـــل فى الأغذية هو النبات والنبات إنما يتولد من

امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب)(١) .

والرد على منكرى البعث من هذه الآية : أنهم يعرفون قصة خلق أبيهم آدم فلقد تولد من الطين فإذا أخذ طوره من الحياة ثم صار ترابا فالذى بدأه قادر على إعادته بل الإعادة أهون من البدء أو أن الطين قابل للحياة فلو لم يكن قابلا للحياة ماتولد منه آدم فالطين يقبل الحياة والله هو القادر على ذلك فلو لم يكن قادرا ما وقعت الحياة وما دامت الأجزاء قابلة للحياة والله قادر وقدرته ذاتية لا تعجز فالبعث واقع .

سخريتهم من الآيات الدالة على البعث :

(بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون . وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون) .

لما أقام عليهم الحجة الجلية بأن الله قادر على إيجاد أشياء أصعب من إعادة أجسادهم وتقرر فى صرائح العقول أن القادر على الأصعب يكون قادرا على الأسهل ولما أقام الحجة ظلوا سادرين فى شركهم وإنكارهم للبعث والرسول ﷺ يتعجب من إنكارهم فبل للإضراب الانتقالى والمعنى فاستفتهم فهم لا يقرون بل عجبت فهو إضراب إنتقالى من بيان حالهم إلى بيان حال الرسول ﷺ . عند صدقهم بأنه تعجب منهم ويستهزئون من تعجبه .

وقرأ حمزة والكسائى بضم التاء فيكون العجب مسندا إلى الله تعالى

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٧ ص ١٢٨

والعجب من الله تعالى إما أن يكون بسبب معصية كما فى هذه الآية فيكون معناه استعظام إنكارهم الذى يترتب عليه العقاب العظيم وإما أن يكون من أجل حسنة يفعلها بعض خلقه فيكون معناه حينئذ استعظام هـذا الفعل الذى يترتب عليه الثواب العظيم .

ولقد اقتصر للقراءة الأولى فريق من العلماء وأقاموا الأدلة على ضعف القراءة الثانيه :

أولا : إن القراءة بضم التاء . تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وهذا محال فى حقه تعالى لأنها حالة تحصل عند الجهل بصفة الشىء المتعجب منه .

ثانياً : أن تعالى أسند التعجب إلى الرسول ﷺ فى آية أخرى فى نفس هذا الموقف قال تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم أئذ كنا ترابا) فهذه الآية تفسر الآية التى معنا وهذا التفسير تفسير بالمأثور وهو مقدم على التفسير بالرأى .

ثالثاً : لما قرعت حجته حجتهم وتضاءلت لم يعترفوا بجواز وقوع البعث بل استمروا فى جحودهم وتعجب الرسول ﷺ منهم فسخروا من تعجبه .

ولقد رد أنصار القراءة الثانية على هذه فى الأدلة :

الأول : أن القراءة بالضم تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى وبيانه أن يكون التقدير قل يا محمد بل عجبت ويسخرون .

الثانى : (سلمنا أن ذلك — أى قراءة الضم — تقتضى إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال ويروى أن شريحا كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق إلا بمن لا يعلم قال الأعمش فذكرت ذلك

لإبراهيم فقال إن شريحا يعجب بعلمه وكان عبدالله أى ابن مسعود أعلم وكان يقرأ بالضم)[1] .

وأقول : إن القراءة بالفتح أولى بالقبول لما يأتى :

١ — إن إسناد العجب إلى الله تعالى لا يليق به فهو من صفات الحوادث والله تعالى مخالف لها فإذا وجدت قراءتان إحداهما تحتمل التأويل فى حق الله والأخرى قراءة صريحة ليس فيها تأويل نأخذ بتلك القراءة .

٢ — إن أنصار القراءة بالضم يصرفون المعنى عن الله تعالى ويسندون التعجب إلى الرسول ﷺ بتقدير والتقدير قل يا محمد بل عجبت وإسناد التعجب إلى الرسول ﷺ معلوم من قراءة الفتح بغير تقدير وهو مقدم على التقدير .

٣ — أن الرسول ﷺ أمر بأن يستفتهم أهم أشد خلقا أم خلق السموات والأرض وما فيهما فهو الذى خاطبهم وهو الذى كان يتعامل معهم فإسناد العجب إليه هو القريب وإسناده إلى الله بعيد . (وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعثون . أو آباؤنا الأولون) .

لقد أمر الرسول ﷺ أن يستخبر أهل مكة أهم أشد خلقا أم غيرهم من المخلوقات التى سبق ذكرها ثم تعجب الرسول ﷺ من استمرارهم فى غيهم ويسخرون منه وتنعت هذه الآيات أهل مكة الصادفين عن القرآن بأنهم إذا وعظوا لا يتعظون وإذا رأوا معجزة تدل على صدق سيدنا رسول الله ﷺ كانشقاق القمر يستهزئون والفرق بين قوله (ويسخرون) و (يستسخرون) أن الفعل الأول يدل على إقدامهم على السخرية .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ١٢٨ ، ١٢٩

والثانى : إما أن يدل على المبالغة فى السخرية لأن المعنى يزداد بازدياد حروف الكلمة أو أن بعضهم يطلب من البعض الإقدام على السخرية فيكون زيادة السين والتاء للطلب .

والسبب فى سخريتهم وإستبعادهم لتلك الآيات لأنها مخالفة للعادة واستبعدوا البعث لأن الإنسان يتحلل ولا يبقى منه شيء فاستعبدوا عوده على حاله مرة أخرى وأسندوا .

رؤية الآيات المعجزات ووقوع البعث إلى السحر وبالغوا فى كونه سحرا بأمور :

أسلوب القصر وهو إن التى بمعنى ما النافية والاستثناء بإلا . واسمية الجملة ووصف السحر بكونه مبينا أى ظاهرا لا شبهة فى كونه سحرا . ثم سألوا سؤالا للإنكار (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أصل هذا السؤال أنبعث إذا متنا وكنا ترابا وعظاما فقدموا الظرف وأدخلوا عليه همزة الإستفهام وكرروا الهمزة فى أئنا ونطقوا بالجملة اسمية بدلا من نطقها فعلية مبالغة فى الإنكار ونفى البعث (أو آباؤنا الأولون) قرأ ابن عامر وقالون بسكون الواو على أنها أو العاطفه وهى للشك والعطف فعطفت آباء على محل إن واسمها فحلها الرفـــع ولا يجوز العطف على الضمير فى لمبعوثون لعدم الفاصل ، وقرأ غيرهم بالفتح ويجوز فى آباء وجهان .

الأول : أن يكون معطوفا على محل إن واسمها .

والثانى : أن يكون معطوفا على الضمير المستتر فى لمبعوثون وهو « نحن » وتكون همزة الاستفهام فاصلة واختار القوم الأوائل لأنهم بادوا ولم يبق منهم عين ولا أثر .

(قل نعم وأنتم داخرون) . أجبهم يا محمد على سؤالهم وقل جواب تبكيت أجل تبعثون ولكن على حال لا تسركم فالمؤمن يبعث فرحاً وتستقبله الملائكة بهوادة ولين . وأنتم معشر الكفر تبعثون أذلاء تسوقكم الملائكة الغلاظ الشداد بتقريع ومقامع من حديد (وأنتم داخرون) جملة حالية والعامل فيها نعم بالنسبة لمعناها لأن معناها تبعثون فالمعنى هو العامل .

والخطاب لأهل الشرك ولآبائهم ولكن غلب المخاطبين على الآباء .

حديث عن يوم البعث ودواهية :

(فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) هذه الآية إما جواب لشرط مقدر تقديره إذا كان كذلك فإنما هى أوهى تعليل لنهى مقدر تقديره لا تستصعبوه فإنما هى صيحة واحدة وهى النصيحة الثانية فإذا هم قائمون يبصرون أو ينظرون ما يفعل بهم وأما النفخة الأولى فهى للصعق : قال تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم ينظرون)(١) .

والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه إذا صاح فيها (وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) .

تصور تلك الآيات حال القوم بعد النفخة الثانية وهى للبعث والنشور فلما قاموا أدركوا الحق وصاحوا يا هلاك احضر فهذا أوانك وتمنوا الهلاك مع ما فيه من الألم لهم لأنه أهون من عذاب الله .

والوقوف تام على ياويلنا لأن مابعده كلام مستقل والويل مصدر لا فعل له من لفظه ويوم الدين يوم الجزاء وهو يوم الفصل .

(١) الزمر آيه ٦٨

و(هذا يوم الدين) يحتمل أن يكون من كلام الكفرة فقد علموا أحوال ذلك اليوم عن طريق السماع فى الدنيا بأنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة لهم .

وأما قوله تعالى هذا يوم الفصل الخ فمن كلام الملائكة يقال على سبيل التوبيخ والتقريع .

(هذا يوم الفصل) بين الخلائق ونعته بقوله (الذى كنتم به تكذبون) أى بسببه تجحدون البعث وتنكرونه .

(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) تأتى الملائكة الموكلة بالعذاب ثم يؤمرون بجمع الظالمين أنفسهم بكفرهم مع من على شاكلتهم وآلهتهم التى عبدوها من دون الله .

فجملة احشروا مقول قول محذوف يقول الله لهم أو تقول الملائكة أو يقول بعضهم لبعض احشروا المشركين وأتى بكلمه حشر التى تدل على الجمع والعذاب وأظهر فى موضع الأضمار لتسجيل الظلم عليهم .

وأزواجهم مفعول معه والمعنى احشروهم مع قرنائهم من الشياطين أو نظائرهم عابد الوثن مع عابد الوثن وعابد الكواكب مع عابد الكواكب أو احشروهم مع نسائهم اللاتى على دينهم وما كانوا يعبدون من الأصنام والكواكب والنجوم . وغيرها وأتى بما التى لغير العقلاء. فهى جلاميد عرت عن العقول والإحساس والحركة (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى سوقوهم إلى طريق النار العظيمة ووجهوهم إليها وآثر الفعل اهدوهم على سوقوهم للتهكم (وقفوهم إنهم مسئولون) .

وهذا أمر بحبسهم فى الموقف فكأن ملائكة العذاب حين أمروا بسياقهم أسرعوا فأمروا بحبسهم للسؤال .

وجملة إنهم مسئولون جملة مستأنفة تعليلية للأمر بالوقوف فلم يكن الوقوف للعفو عنهم أو للاستراحة أو تأخير العذاب بل السؤال على سبيل التوبيخ « ما لكم لا تناصرون » وهذا السؤال عام لكل الذين ينصرون الكفر وأهله على الإيمان وأهله وينصرون الشر ودعاته على الخير وأنصاره « لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً » كما كنتم فى الدنيا .

وهذا السؤال لما كان على سبيل التوبيخ فليس له جواب بل الملائكة أصابت بقولهم « بل هم اليوم مستسلمون » وبل للإضراب الانتقالى من سؤال التوبيخ إلى نعتهم بالذلة والهوان والانتقام والاستسلام .

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين * فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم إنا كنا غاوين . فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين).

تصور هذه الآيات حال أتباع الشر والمتبوعين الذين يبثونه وسط الخلائق فإنهم يأتون يوم القيامة ويخاصم بعضهم بعضا فيجادل الأتباع المتبوعين ويحاجج المتبوعين الأتباع فيلوم كل منهما قرينه .

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ وملامة (قالوا إنكم تأتوننا عن اليمين) هذا إستئناف وقع جوابا نشأ من حكاية تساؤلهم .

فكأنه قيل كيف تساءلوا فقيل قال الأتباع لأولى القوة والدعاة للشرك والشر إنكم كنتم تأتوننا « عن اليمين » ولفظ اليمين مشترك بين

معانى متعددة يطلق ويراد به القوة فيكون المعنى إنكم كنتم تأتوننا عن طريق القوة والرئاسة اللتين تتمتعون بهما فتقسروننا وتقهروننا على قبول الشرك والشر والأفكار التى لا تتفق ودين الله تعالى .

ويطلق ويراد به الحلف فقد كان هولاء يقسمون على بعض الأمور مثل قول الله تعالى عنهم « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال »(١)

وأقسموا أيضاً على أنه لا يبعث الله من يموت فيحتمل أن يكون هؤلاء أقسموا لهم على صحة الشرك وبطلان التوحيد .

ويطلق ويراد به الجهة وهى أنهم كانوا يأتوهم عن اليمين فيذكر الاتباع الجهة التى أتى منها القوم لتكون دلالة على جرم هؤلاء أى المتبوعين فى الدنيا .

ويطلق ويراد به الخير كما تطلق الميامن على اليمين والتشاؤم على الشمال ويكون المعنى أن هولاء المتبوعين يدعونهم إلى الشرك وفكره ويزعمون للاتباع أن الخير منه فالآية تحتمل هذه المعانى المتعددة ولا تعارض بينها لأن المتبوعين حين دعوهم تفننوا فى الأساليب فمرة يظهرون القوة ومرة يحلفون ومرة يقبلون عليهم من جهة اليمين ومرة يذكرون لهم أن الخير فى عبادة الأصنام وأنه لا بعث بعد الموت .

ولقد أجاب المتبوعون عما أثاره الاتباع بأجوبة خمسة قولهم : الاول (قالوا بل لم تكونوا مؤمنين) هذا إضراب إبطالى لكلام الاتباع الذين ادعوا فيه أن المتبوعين هم الذين أوقعوهم فى الشرك قالوا (بل لم تكونوا مؤمنين) فأنتم لم تكونوا مؤمنين ولم تكن قلوبكم صالحة لقبول الإيمان وحينما عرض عليكم ابيتم قبوله .

---

(١) إبراهيم آية ٤٤

الثانى : (وما كان لنا عليكم من سلطان) ينفى المتبوعون عن أنفسهم ما ادعاه الأتباع فيجردون أنفسهم من القوة أو الحجة فى الدنيا فهم لم يتسلطوا عليهم حتى يجبروهم على الشرك أو يسلبوهم الإيمان بعد التمكن منه .

فسبحان الله يكذب بعضهم بعضا فلقد زال سلطان الدنيا وجاهها وأصبحوا مجردين من القوة لابسين رداء الذلة وانخلعت قلوبهم فرقا من غضب الجبار حتى آل بهم الأمر لأن يلصق الواحد منهم التهم بغيره ويلقى التبعة عليه . ويتمنى أن ينجو من عذاب الله تعالى ويقدم زوجته وإخوته وعشيرته وكل من فى الأرض فداء له من عذاب الله ويصور القرآن هذا بقوله :

(يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه)(١) .

الثالث : (بل كنتم قوما طاغين) هذا إضراب إنتقالى من المتبوعين إنتقلوا من نفى القوة والحجة عنهم إلى إثبات أن كفر الأتباع كان ذاتيا ولم يكن من أمر خارج عنهم فقالوا . بل إنكم اخترتم الطغيان وهو مجاوزة الحد .

الرابع : (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) هذا اعتراف بأن الله لم يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم فلزمهم وعيد الله تعالى الذى قاله (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) (إنا لذائقون) عذاب الله الذى ورد به الوعيد .

الخامس : (فأغويناكم إنا كنا غاوين) دعوناكم إلى الضلال فقط ولم

---

(١) سورة المعارج آية ١١ — ١٤

تكن دعوة ملزمه فاستجبتم لنا مختارين فلا تعتبوا علينا لأنكم اتبعتمونا مختارين غير مجبرين ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فالكفر ملة واحدة . وهذه الآية تدعو إلى الحرية وتنهى الإنسان أن يكون إمعة وتدعوا أهل الكتاب بأن لا يجارى الإبن أباه فى عقيـــدته وعليه أن يقف ويتأمل فى ديانة والديه . فإن لم يفعل ذلك حق عليه العذاب مثل هؤلاء .

ثم قال الله تعالى (فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون) الفاء للسببية والجلة بعدها جملة استئنافية تعليلية أى فبسبب إغواء المتبوعين وانقياد الأتباع إنهم مشتركون فى العذاب وقدم الجار والمجرور على متعلقه . للتهويل والرهبة ،

لما شارك الأتباع المتبوعين فى الطغيان شاركوهم فى العذاب الأليم . (إنا كذلك نفعل بالمجرمين) يقول الله تعالى كما نفعل بعبدة الأوثان المنكرين للبعث من العــــذاب والتنكيل بهم يوم القيامة نفعل باليهود والنصارى ، فإنهم كافرون فإن القرآن قد جعلهم كفرة .

قال تعالى (وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله)[1] .

(إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) هذا استئناف يبين حال عبدة الأوثان حين يعرض عليهم التوحيد فسلوكهم تجاه الداعية يسير فى طريقين :

١ — الإنكار والاستكبار ويأبون التوحيد ويتمسكون بالتعديد لجعل الفعل مبنيا للمجهول ليشمل كل داعية دعا هؤلاء إلى التوحيد .

---

(١) التوبة آية ٣٠

٢ — جحود نبوة رسول الله ﷺ وإذا رأوا إعجاز القرآن يفحمهم ويعجزهم يقولون مستفهمين استفهاما إنكاريا أنترك عبادة الأوثان بسبب شاعر لا عقل له . فرد الله عليهم بقوله (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) هذا رد من الله تعالى على هؤلاء المشركين الذين يرمون رسوله بأنه شاعر ومجنون ، وهذا إضراب إبطالى يبطل زعمهم . وينعته ﷺ بأمرين .

الأول : كونه جاء بالحق وهذا القول إثبت له الرسالة التى ينفيها المشركون .

الثانى : إنه لم يأت بما هو مباين للرسل بل اتفق معهم فى الدعوة إلى التوحيد وفى إثبات الرسالة وإثبات البعث والدعوة إلى الأخلاق وعبادة الله . فلم يكن بدعا من الرسل (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) لقد تغير الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب وهذا التفات لإظهار كمال غضب الله عليهم وتهديدهم ولقد أتى هذا الأسلوب بمؤكدات : كون هذا الكلام صدر عن الله تعالى فهو وعيد ووعيده لا يتخلف ، إن ، اللام ، وإسمية الجملة .

وهذه القراءة بالخفض أى أن ذائق مضاف والعذاب مضاف إليه . وقرىء بنصب العذاب أى لذائقون العذاب فيكون العذاب مفعولا لاسم الفاعل ، وكأنه قيل كيف يعذب الله وهو المتصف بالرحمـــة وهم خلقه وعباده ؟ فقال متحدثا عن الجزاء والجنان « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » .

وهذه الجملة معترضه بين المستثنى منه وهو الضمير فى لذائقوا وبين المستثنى وهو عباد الله الآتى فى قوله « إلا عباد الله » ، وجىء بها لبيـان أن ذوقهم العذاب هو من جهتهم لا من جهة غيرهم .

وهذا الأسلوب أسلوب قصر بما وإلا أى ما تجزون إلا بقدر الذى قدمتموه وهذا ينفى عن الله أن يكون ظالما لعبد من عبيده ومع هذا فالله

رحيم بهم لأن وعيد الله لهم ليس فيه تضعيف السيئة كما يجزى الله عن الحسنة بعشر أمثالها .

جزاء عباد الله المخلصين :

(إلا عباد الله المخلصين) أى لكن عباد الله المخلصين يضاعف لهم ميزان الحسنات إلى سبعمائة ضعف والإضافة هنا للتشريف كيف لا وهم الذين تبرؤا عما دون الله تعالى فصفت عقيدتهم وصارت نقية لا شبهة فيها وهو استثناء منقطع والمستثنى منه الضمير فى لذائقو .

طعام أهل الجنة :

(أولئك لهم رزق معلوم) يبين الله تعالى نعيم عباد الله بأنهم فى عليين فاسم الإشارة يدل على علو طبقتهم ورفعة منزلتهم وهو مبتدأ خبره جملة « لهم رزق معلوم » التى تقدم خبرها والسر فى تقديم الخبر على المبتدأ التخصص فهذا الرزق لا يتعداهم إلى غيرهم ولقد نعت الله الرزق بكونه معلوما . فهل هو معلوم القدر ؟ أى محدوده أم هو معلوم الوقت كما ورد فى قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا)(١) ؟ فكونه معلوم القدر على قدر أعمالهم فهذا يتنافى مع فضل الله فلقد قال الله فى آية أخرى (فأولئك يدخلون الجنة . يرزقون فيها بغير حساب)(٢) وأما كونه معلوم الوقت فليس للرزق فى الجنة ميقات معلوم بل أطلق الوقتين البكرة والعشيه لأن تحصيل الرزق فى هذين الوقتين غير ميسور فرزقهم فيهما مضمون ومضمون فى كل الأوقات لأن الجنة ليس فيها ليل ولا نهار بل نور معروف لهم .

---

(١) مريم آية ٦٢
(٢) غافر آية ٤٠

وهنا مجاز مرسل علاقته الجزئية والكلية بقى أن يكون معنى معلوما أنه معلوم الصفات من الدوام وعدم الإنقطاع وهو فى متناول أيديهم .

كما قال تعالى (وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة)(١) ثم قال (فواكه وهم مكرمون) فواكه بدل من رزق بدل كل من كل وأفاد أن هذا الرزق المشتمل على جميع الأطعمة والأشربة للتلذذ وليس لحفظ صحة ولا لدوام عافية ولا لطول أجل لأن أجسامهم جعل الله فيها الدوام أبدا . ولا ينتج عن الرزق شىء مما يوجد فى الدنيا قال رسول الله ﷺ (يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يبولون)(٢). (وهم مكرمون) . وهذه الجملة أفادت أنهم سموا عن الحيوانية بل يكرمون .

كيفية جلوس أهل الجنة :

(فى جنات النعيم . على سرر متقابلين) . الجار والمجرور متعلق بمكرمين ويجوز أن يكون خبراً ثانيا ويجوز أن يكون حالا ويجوز فى سرر أن يكون خبراً ثالثا وأن يكون حالا ويجوز أن يتعلق بمتقابلين يصف الحق تبارك وتعالى أنهم فى بستاتين النعيم على أسرة وجوههم لوجوه بعض لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض وهذا الحال زيادة فى الأنس والإكرام .

خمرهم ونعتها :

(يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) .

---

(١) الواقعة ٣٢ ، ٣٣ (٢) رواه مسلم ج ١٦ ص ١٧٢

هذا استئناف :

يصف الحق تبارك وتعالى حالا من أحوال أهل الجنة وهو مجلس الشراب فكأنهم جلسوا فى مجالس السمر ويمر عليهم الولدان بالخمر الواردة من أنهار الجنة كما قال تعالى (وأنهار من خمر لذة للشاربين)(١) .

والخمر تشبه اللبن فى بياضه وهو لذة لكل شارب هاتان الصفتان للإثبات ثم نفى عنها كونها تفسد عقولهم أو تسكرهم فهى تمتعهم ولا تترك لهم ضررا .

(بكأس من معين) الكأس مؤنثة وهى لا تسمى كأسا إلا إذا كان بها الشراب وإن خلت من الشراب تسمى قدحا والمراد بها الخمر ومن معين جار ومجرور متعلق بمضمر هو صفة لكأس أى كائنة من شراب معين أو من نهر معين أى ظاهر للعيون لأنه يجرى كأنهار الماء أو خارج من العيون .

(بيضاء لذة للشاربين) بيضاء ولذة صفتان لكأس ولذة مصدر ووصفت بها الكأس إما للمبالغة كأن الخمر هى اللذة بعينها أو هى على حذف مضاف أى ذات لذة .

« لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » .

الغول : الهلاك والفساد . وأنزف إذا ذهب لبه من السكر . ولا التى كررت للنفى وعن للسببيه .

---

(١) محمد آية ١٥

المعـــنى :

إن جو الجنة خال من اللغو والضوضاء . قال تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما)(١) .

وقال تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا)(٢) فنعيها لا حصر لها ومن المشروبات التى يتمتع بها أهلها الخمر ولقد نعتها الله تعالى بالصفاء واللذة ونفى عنها الضرر الذى يصيب الجسم أو يتلفه ونفى عنها كونها تذهب العقل فلا يسكرون ولا يعربدون . فليست كخمر الدنيا التى تذهب العقل وتصيب الجسم .

حور الجنة :

(وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون) .

العنديه توحى بانقياد الزوجات لأزواجهن كأن الأزاج ملكوهن ، زوجات لا يكدرن صفو اللذة والنعيم على أزواجهن . وقد يكون التعبير بالعندية وقصر الطرف (كناية عن فرط محبتهن لأزواجهن وعدم ميلهن إلى سواهم وقيل لا يفتحن أعينهن دلالا وغنجا والطرف فى كل ذلك طرفهن وجوز أن يكون الوصف متعديا والطرف طرف غيرهن والمعنى قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن فلا يتجاوزهن طرف الناظر إليهن والظاهر أن العندية فى مجالس الشرب إتماما للذة)(٣) وحذف متعلق القصر للعلم به .

---

(١) الواقعه آية ٢٥ — ٢٦

(٢) النبأ آية ٣٥

(٣) روح المعانى ح ٢٣ ص ٨٩ ملخصا

ومعنى « قاصرات الطرف » غضيضات أبصارهن عن غير أزواجهن فلا ترى الواحدة منهن ببصرها إلى غيره . فالطرف بسكون الراء البصر « عين » جمع عيناء ، فهن نجل العيون أى متسعات العيون مع حسنها . فذكر عين بعد قاصرات الطرف يوحى بسمو جمالهن ، « كأنهن بيض مكنون » يشبه الله تعالى الحور العين فى لطفهن ورقتهن ونعومتهن بقشرة البيضة التى تلى الأولى . وزاد من هذه المعانى وصف البيض بكونه مكنونا .

ولقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المشبه به هو بيض النعام المشوب بالصفرة واللمعان لكونه أحسن بيض وهذا اللون يحبه العربى ولقد نحى هذا النحو فريق من العلماء منهم الفخر الرازى قال (ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة)(١) وقال أبو السعود (شبههن ببيض النعام المصون من الرهج ونحوه فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفره)(٢) .

وقال الألوسى (والأكثرون على تخصيصه ببيض النعام فى الأداحى لكونه أحسن منظرا من سائر البيض وأبعد عن مس الأيدى ووصول ما يغير لونه)(٣) .

ولقد ذهب إلى هذا المعنى النسفى والخازن والجمل والسيوطى وغيرهم .

والذى أراه :

أن المراد بالتشبيه هو تشبيه الحور فى رقتهن ونعومتهن بالقشرة السفلى للبيض والذى يرجح ذلك ما يأتى :

أولا : الوصف بكونه مكنونا فلو كان المراد غير رقة القشرة وطراوتها

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٧ ص ١٣٨

(٢) مفاتيح الغيب وبهامشه تفسير أبى السعود حـ ٧ ص ٣٩ الهامش

(٣) روح المعانى حـ ٢٣ ص ٨٩

لغات معنى مكنون . لأن البيض لا يكون مكنونا إذا لمسه الطائر أو الريش أما إذا كان المراد رقة القشرة فإن معنى مكنون يتحقق .

ثانيا : لقد وصف الله الحور العين فى عروس القرآن قال تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) وهذا التشبيه يعطى الصفاء فى اللون الأبيض المشوب بالحمرة وهذا اللون محبب للإنسان لأنه يكون ناشئا عن سلامة الصحة . أما اللون الأبيض المشوب بالصفرة كيف يحبه الإنسان وهو وليد الضعف والهزال ؟ .

ثالثا : لقد أورد ابن كثير تفسيرا لهذه الآية قال (وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب حدثنا محمد بن الفرج الصدفى الدمياطى عن عمر بن هاشم عن ابن أبى كريمة عن هشام عن الحسن عن أمه أم سلمة رضى الله عنها قلت يارسول الله أخبرنى عن قول الله «كأنهن بيض مكنون» قال : رقتهن كرقة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة التى تلى القشرة وهى الغرقىء)(١) .

فيكون معنى التشبيه فى الآية الرقة والنعومة لا اللون . ولقد نعت الرسول ﷺ زوجة أهل الجنة فقال (أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض لكل امرىء منهم زوجتان كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن يسبحون الله بكرة وعشيا لا يسقمون ولا يمتخطون ولا يبصقون آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب)(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٢٣ ص ٨٩

(٢) البخارى حـ ٤ ص ١٤٣

دحض ماورد فى الإنجيل : —

لقد ورد فى إنجيل مرقس أن أهل الجنة لايتناكحون (وجاء إليه قوم من الصدوقيين الذين يقولون ليس قيامة وسألوه قائلين . يامعلم كتب لنا موسى إن مات لأحد أخ وترك امرأة ولم يخلف أولاداً أن يأخذ أخوه امرأته ويقيم نسلا لأخيه . فكان سبعة إخوة أخذ الأول امرأة ومات ولم يترك نسلا فأخذها الثانى ومات ولم يترك هو أيضاً نسلا وهكذا الثالث. فأخذها السبعة ولم يتركوا نسلا وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً . ففى القيامة متى قاموا لمن فيهم تكون زوجة لأنها كانت زوجة للسبعة فأجاب يسوع وقال لهم أليس لهذا تضلون إذ لاتعرفون الكتب ولا قوة الله لأنهم متى قاموا من الأموات لايزوجون ولا يزوجون بل يكونون كملائكة فى السموات)(١) .

فلقد جعل الإنجيل الإنسانية يوم القيامة كالملائكة لايأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون وهذا باطل لما يأتى : —

لقد فطر الله الإنسانية وأودع فيها الغرائز تدفعها إلى الأنشطة المتباينة فيها تحيا وفى ممارستها تتلذذ وبها يستمر وجودها . طبعها الله على ذلك . ثم بعد ذلك تكون حياة البرزخ وبعدها يقوم الناس لرب العالمين . وتكون أجسادهم شبيهة بتلك الأجساد الدنيوية. ففريق فى الجنة وفريق فى السعير . ومع ذلك تكون الغرائز مصادر للعذاب فأهل النار يلق الله فيهم العطش والجوع للعذاب قال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين)(٢) .

---

(١) العهد الجديد إنجيل مرقس إصحاح ١٢ آية ١٩-٢٦ ص ١٠٢-١٠٣

(٢) الأعراف آية ٥٠

ومن جهة أخرى تكون الغرائز مصادر لذة فى الجنة فيأكلون أشهى الطعام ويشربون أطيب أنواع الشراب . وليس لهم إخراج . بل يخرج منهم رشح مثل المسك قال عليه السلام (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة لايبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك)(١) .

وفى الجنة يكون التلذذ بالجنس وتكون المضاجعة قال تعالى (إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكاراً)(٢) .

يقول ابن كثير فى تفسيرها (وقال عبد الله بن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن دراج عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال له : أنطأ فى الجنة ؟ قال نعم والذى نفسى بيده دحماً دحما فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرا)(٣) .

أحاديث السمر :

(فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول أإنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا

(١) صحيح مسلم حـ ١٧ ص ١٧١ — ١٧٢
(٢) الواقعة آية ٣٥ — ٣٦
(٣) تفسير ابن كثير حـ ٨ ص ١١

الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هـذا فليعمل العاملون) .

تصور تلك الآيات أحاديث السمر فليسوا محبوسين ينعمون لايرى بعضهم بعضا بل يتزاورون . ويتجاذبون أطراف الحديث عن ماضيهم فى الدنيا . فتارة يتحدثون عن حوارهم مع الملحدين الجاحدين . وأخرى عن خوفهم من رب العالمين .قال تعالى (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنامن قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم)(١) .

هذا هو حديثهم على الشراب واجتماعهم فى تنادمهم. والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا على قلب بشر خطرت وجالت . فقال متحدث من أهل الجنة الذين آثروا الإيمان على الكفران . إنه كان لى صاحب فى الدنيا ينكر على إيمانى بالبعث ويقول مبكتا وموبخا أ إنك لمن المؤمنين بالبعث بعد الموت. ويبنى فكره على أساس واه ويسوق دليلا لباطله أ إذا هلكنا وصرنا عظاما وترابا أ إنا لمجزيون ومحاسبون . ؟ثم التفت إلى أصحابه يدعوهم إلى النظر إلى النار من كوى الجنة ينظر معهم فرأى قرينه وسط النار فقال له تشميتا ومقسما له تا الله إنك لقربت أن تهلكنى بإغوائك لى ولولا نعمة ربى وفضله على وهدايته لى لصرت من المحضرين معك فى النار . ويقول أهل الجنـة أ فما نحن بميتين إلا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فلعمل العاملون ،

(١) الطور آية ٢٤ — ٢٨

قوله « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » .

هذه الآية معطوفة على يطاف وما بينها معترض أو أن ما بينهما يتعلق بيطاف وعبر بالماضي مع أن المعطوف عليه مضارع للاعتناء بالمعطوف ولتحقق الوقوع . والمراد بالبعض هم أهل الجنة يقبل بعضهم على بعض فيسألون عن ما مر بهم في الدنيا وماجرى لهم من أحداث فما أجمل اجترار أحداث الماضي عند رفاهية الحال وفراغ البال « قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أإنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون » أي قال قائل من أهل الجنة أثناء السمر أو أثناء الحديث على الشراب فإن الحديث على الشراب فيه لذة قال محمد بن فياض :

وما بقيت من اللذات إلا ... محادثة الكرام على الشراب

قال إني كان لي في الدنيا صاحب مشرك في الدنيا وقيل كان شيطانا وهذا قول مجاهد (قيل : كان قرينه شيطانا وقيل كان من الإنس وقيل كانا أخوين . وقيل كانا شريكين : أحدهما : كافر اسمه قرطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وهما اللذان قص الله عز وجل خبرهما في سورة الكهف في قوله « واضرب لهم مثلا رجلين »)(١).

وروى (أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى دارا بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها فخرج وقال اللهم إن هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني أسألك دارا من دور الجنة فتصدق بألف دينار ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله تعالى من الحور العين ثم إن صاحبه اشترى بساتين

---

(١) الخازن جـ ٤ ص ١٨ .

بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار ثم إن الله أعطاه في الجنة ما طلب فعند هذا قال إنه كان لى قرين فاطلع فرآه في سواء الجحيم)[١] .

قوله « يقول أ إنك لمن المصدقين » .

هذا الاستفهام مراد به التوبيخ على إيمانه بالبعث وحذف متعلق المصدقين وهو البعث لأن الآية التالية تنبيء عنه .

« أ إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أ إنا لمدينون » .

وهذان الاستفهامان لزيادة الإنكار ، وذكر العظام مع أن التراب يغنى عنه في الإنكار .

لتصويره ما يشاهده من مراحل تحلل الإنسان من زوال اللحم ويصير الإنسان عظاما نخرة ثم يعود إلى سيرته الأولى وهى التراب . ولقد قدم التراب على العظام لكونه أبعد عودة من العظام وتختلف القراءات في هذه الاستفهمات الثلاثة أإنك لمن المصدقين ، أ إذا متنا ، أ إنا لمدينون » (قرأنا فع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام ووافقه الكسائى إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام وقرأ الباقون بالاستفهام في جميعها ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة وأبو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين)[٢] .

(قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) هذا استمرار

---

(١) و (٢) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ١٣٩ .

لحديث القائل الذي يسامر أصحابه من أهل الجنة فبينما هو يتحدث معهم عن القرين وعن جحوده وإنكاره يخطر له أن يتطلع إليه فهو يوقن أنه صار إلى الجحيم فيدعو سماره إلى التطلع معه . فاطلع واطلعوا معه فرأوه في وسط الجحيم فاتجه إليه يقول كدت توردني موارد الردى بوسوستك لولا أن الله عصمني من مواكبتك في كفرك لكنت من المحضرين معك عذاب النار . والاستفهام بمعنى الأمر ويحتمل أمورا ثلاثة يحتمل أن يكون من كلام القائل ،

وهذا استمرار لحديثه ويحتمل أن يكون من الله سبحانه وتعالى ويحتمل أن يكون من الملائكة ومطلعون بمعنى مقبلون وناظرون إلى النار من كوى(١) الجنة فاطلعوا أو اطلع معهم القائل (فرآه) أي القرين وفي (سواء) أي وسط الجحيم سمي الوسط سواء لاستواء الجوانب منه وا (لجحيم) هي النار العظيمة وهو اسم من أسماء النار . قال تالله إن كدت لتردين) وهذا أسلوب من أساليب القسم بالله أن هذا القرين قرب بوسوسته أن يهلكه وفي قراءة عبد الله بن مسعود لتغوين وإن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين الشرطية واسمها محذوف أي إنك كدت (ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) ولولا فضـــل على بهدايتي إلى الإسلام لكنت من المعذبين . ومحضريين جمع محضر وهو اسم مفعول من الفعل أحضر (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) . وهذا الأسلوب رجوع إلى محاورة جلسائه فهذا الاستفهام يحتمل أن يكون من القائل ويحتمل أن يكون من أهل الجنة وهو موجه إلى بعضهم أي من سؤال بعضهم لبعض أو من سؤالهم للملائكة ودخلت همزة الاستفهام على محذوف

---

(١) كوى بكسر الكاف وضمها ومع الكسر يصح المد والقصر ، ومع الضم يتعين القصر وهي جمع كوه وهي الثقب في الحائط .

تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين . والفاء عطفت ما بعدها على ذلك المحذوف والغرض من هذا الاستفهام أمران :

١ — الابتهاج بما أباح لهم من الجنة وأنعم عليهم بالحلول فيها واظهار شكر هذه النعمة .

٢ — التعريض بتوبيخ القرين والتشميت به .

قوله (إلا موتتنا الأولى) يريدون موت الدنيا وليست موتتين لأن حيـــاة القبر التي فيها يكون السؤال لا يعتد بها لأنها ليست تامة ولا مستقرة وزمانها قليل جداً فهي موت والاستثناء مفرغ وموتتنا منصوب على المصدر والعامل فيه الوصف ميتين .

وعلمهم بأنهم لا يموتون إلا الموتة الأولى يحتمل أن يكون ناشئا من جهات ثلاث :

الأولى : أنهم عرفوا ذلك من أنبيائهم في الدنيا .

الثانية : أنهم عرفوا ذلك من الملائكة عند دخول الجنة وذلك من قول الملائكة لهم .

قال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)(١) .

الثالثة : أنهم عرفوا ذلك من المثل الذي يضرب لأهـل الآخرة يوم القيامة (قال رســـول الله ﷺ : يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش

---

(١) الزمر آية ٧٣ .

أملح(١) زاد أبو كريب فيوقف بين الجنة والنار واتفقا فى باقى الحديث فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون(٢) وينظرون ويقولون نعم هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح قال ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلاموت ويا أهل النار خلود فلا موت قال ثم قرأ رسول الله ﷺ « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » وأشار بيده إلى الدنيا)(٣) (ومانحن بمعذبين) كأصحاب النار والمراد استمرار النفى وتأكيده ولقد أكد النفى بما والباء الزائدة واستمرار النفى نعمة جليلة من الله وهو يقتضى استمرارهم فى النعيم لأن زوال النعيم عذاب لهم فهذه الجملة ذات معنيين : الأول : نفى العذاب عنهم ونفى العذاب يتبعه نفى الهرم والشيخوخة واختلال القوى فإنها من أنواع العذاب . الثانى : استمرار نعيمهم وتأبيده .

ولقد قالوا وما نحن بمعذبين دون أن يذكروا النعيم فلم لا يقولون ونحن منعمون لأن نفى العذاب أسرع خطوراً ببال الذى عوفى من العذاب عند مشاهدة العذاب أو أنه درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة .

(إن هذا لهو الفوز العظيم) يحتمل أن يكون هذا من كلام القائل أو من كلام الملائكة ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى واسم الإشارة يعود على ما أعده الله لعباده المخلصين من النعيم من أول قوله تعالى (أولئك لهم رزق معلوم) ولقد اكدت هذه الجملة بإن واللام واسمية الجملة والفوز هو الظفر بالبغية والنجاة من الخسران والعظيم يعطى معنيين :

---

(١) أملح إذا كان اسود يعلو شعره بياض وقيل نقى البياض وقيل ليس بخالص البياض بل فيه عفرة .

(٢) يشرئبون : يرفعون رءوسهم .

(٣) رواه مسلم ج ١٧ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

الأول : علو المرتبة .

الثانى : الكثرة لأن صيغة فعيل تدل على الكثرة ويفسر هـذا الفوز قول الله تعالى فيما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم (يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله(١) ما أطلعكم الله عليه ثم قرأ (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين

(لمثل هذا فليعمل العاملون) قيل هذا من كلام القائل وقيل من كلام أهل الجنة بعضهم مع بعض وقيل من كلام الملائكة وقيل من كلام الله والراجح أن هذا من كلام الله تعالى لأن الدار الآخرة دار جزاء وليست دار عمل وهذا أسلوب أريد به الأمر بالعمل الصالح .

ويكون المعنى لنيل هذا الفوز العظيم يعمل العاملون ويؤثرون الآخرة على الدنيا لانصرام الأولى وبقاء الثانية .

حديث عن نزول أهل النار :

طعامهم وشرابهم :

(أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) .

---

(١) بله : بفتح الباء وإسكان اللام حرف يفيد الإضراب فيكون المعنى دع عنك ما اطلعكم عليه فالذى أمره عنكم أعظم منه .

لقد تحدثت الآيات الآنفة عن نزل أهـــل الجنة وعن أزواجهم وجلسات السمر ثم تحدثت تلك الآيات عن نزل أهل النار فقال الله له قل يا محمد لهؤلاء الـكفرة أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم إنا جعلناها إبتلاء لهؤلاء المشركين المتجاوزين للحدود بأنها تنبت فى قعر جهنم ثمرها كأنه رءوس الشياطين . ترهب من ينظر إليها ومن أنواع العذاب أن الله يرسل عليهم الجوع فيأكلون منها فيملأون منها بطونهم ثم تطلع أنفسهم إلى ماء بارد يروى ظمأهم ثم يستغيثون ويطلبون المـاء فيأتيهم شراب خليط من غساق وحميم إن مرجعهم لإلى الجحيم .

سبب نزول هذه الآيات :

ذكر صاحب أسباب الـنزول سببا لهـذه الآيات فقال (أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أبو جهل: زعم صاحبكم هذا أن فى النار شجرة والنار تأكل الشجر وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبدفأنزل الله حين عجبوا أن يكون فى النار شجرة .

« إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون)(١).

وأما هذا الـكلام وهو قوله أذلك خير نزلا أمشجرة الزقوم فاختلف فى قائله كما فى الآيات السابقة فقيل إنه من كلام القائل وقيل هو من كلام بعضهم مع البعض وقيل هو من كلام أهل الجنة لأهل النار والراجح أنهمن كلام الله تعالى لأنه يعقبه قوله إنا جعلناها فتنة للظالمين وضمير المتـكلم المعظم نفسه/فى إنا ، وجعلناها يعود على الله تعالى فيكون الـكلام متعلقا

---

(١) الإمام جـــلال الدين السيوطى فى كتابه « أسباب النزول » ص ١٤٦

بأولئك لهم رزق معلوم وعلى ضوء ذلك يكون قوله أذلك خير نزلا معمولا لمحذوف تقديره قل يا محمد لقومك أذلك : واسم الإشارة يعود على النعيم الذى نعته الله وعدده لأهل الجنة وهو من قوله تعالى « أولئك لهم رزق معلوم » الخ.

ونزلا تمييز لخير والخيريه بالنسبه إلى ما اختاره الكفار ومعنى النزل كما يقول الراغب الأصفهانى (النزل ما يعد للنازل من الزاد قال :

« فلهم جنات المأوى نزلا » وقال « نزلا من عند الله » وقال فى صفة أهل النار « لآكلون من شجر من زقوم » إلى قوله « هذا نزلهم يوم الدين فنزل من حميم)(١).

وأم متصلة لأنه تقدمها همزة يطلب بها وبأم التعيين والغرض من هذا الاستفهام التهكم والتوبيخ .

« أم شجرة الزقوم » أم حرف عطف. عطف شجرة على اسم الإشارة وآثر ذكر شجرة الزقوم على ذكر نزل ولم يقل أذلك خير نزلا أم نزل أهل النار لمقابلة طعام أهل الجنة بذكر طعام أهل النار .

فيكون المعنى :

أذلك الزاد الذى حاصله اللذة والسرور ويقدم لأهل الجنة فى رفق وتعظيم لهم خير أم شجرة الزقوم التى يقسر أهل النار على تناولها قسرا وشدة . فيرتعدون فرقا من منظرها فيأكلون منها فلا يسمن طعامها . ولا يسد لهم رمقا بل فيه عذاب عند نزوله إلى امعائهم .

لقد ساق الحافظ ابن كثير بعض الآراء فى هذه الشجرة فقال (وقيل

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٨٩

المراد بذلك ضرب من الحيات رءوسها بشعة وقيل جنس من النبات طلعه فى غاية الفحاشة)(١).

وهذه المعانى بعيدة عن التفسير المناسب لسياق الآيات فالمعنى الذى ذكر آنفا فى سبب النزول وهو ان الزقم أكل التمر والزبد فهذه لغة أهل اليمن . وأبو جهل غبى فى ذهابه إلى هذا المعنى لأن الآية تبين طعام أهل النار وشتان بين اللذة فى التمر والزبد وبين الآلام التى يذوقها المعذب فى النار .

والمعنيان اللذان ذكرا من كونها ضرب من الحيات أو انها بأرض تهامة فهذان يخالفان ظاهر النص . فالحيات لا يطلق عليها اسم الشجر وهذه الشجرة ليست موجودة بأرض تهامة لأن المشبه به رءوس الشياطين وليست معروفة بل هذا تشبيه بالمتخيل لتذهب النفس فى التهويل كل مذهب .

« إنا جعلناها فتنة للظالمين »

أى أن الله تبارك وتعالى جعل هذه الشجرة اختباراً للكفرة الظالمين . وفتنتهم أتت من كونها تنبت فى قعر جهنم . والنبات تأكله النار وعقول هؤلاء قاصرة لأن الله خالق النار . وهو قادر أن يسلبها خاصيتها وهى عدم الإحراق وهو المتكلم بهذا .

ولقد ذكر بعض علماء التفسير ان الله خلق حيوانا يعيش فى النار ويتلذذ بها هو حيوان السمندل ذكر هذا العلامة ابو السعود والألوسى وسليمان بن عمر العجيلى صاحب الفتوحات الإلهية .

قوله «إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين»

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٧ ص ٩٧

ذكر الله تعالى وصفا من أوصاف هذه الشجرة وهو كونها تنبت في قعر جهنم . وأول ما يخرج منها للثمر كأنه رءوس الشياطين وكأن أقوى أدوات التشبيه فكأن المشبه يفيد مطابقة المشبه به هذا من ناحية الطلع فما بالك بثمرها فإنه يكون أفزع من الطلع . وجمع طلع أطلع . وهنا أسلوب بلاغى من قبيل الاستعارة حيث شبه أول ما يخرج من شجرة الزقوم من ثمر بطلع النخل بجامع الظهور والبروز ثم حـــذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية .

قوله « فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم الفاء أفادت السببية .

ولقد اقترنت الآية الأولى بثلاثة مؤكدات إن واسمية الجملة . واللام . وسر مجىء المؤكدات أنهم يقسرون ويجبرون على الأكل من هذه الشجرة وإكراههم على ذلك إما من أمر ذاتى يخلق الله فيهم الجوع الشديد فيطلبون الطعام فيأكلون منها فيلقون عذابا شديداً . وإما أن الزبانية تجبرهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم وتقطيعا لأمعائهم واسم الفاعل أفاد الدوام والاستمرار . ولما كان الأكل متصلا حتى يملأوا بطونهم عطف بالفاء فقال : « فمالئون منها البطون » .

وبعد أن يملأوا بطونهم يرسل الله عليهم العطش فيعذبون بالعطش فيستغيثون بالماء ويطول عطشهم وكلما طال إزداد ولما كان هناك وقت طويل بين طعامهم وشرابهم عبر بثم التى تفيد التراخى والضمير فى منها يعود على الشجرة .

درء شبهة :

لقد عبر الله تعالى بثم التى تفيد التراخى فى هذه الآية ولقد عبر بالفاء فى موطن آخر فى تناول أهل النار طعامهم قال تعالى (ثم إنكم أيها الضالون

المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم)(١) فالآية الأولى أتى بثم التى تفيد التراخى لوجود مدة بين طعامهم وشرابهم وأتى بالفاء فى الآية الثانية لأنهم أثناء تناول شجرة الزقوم بآلام وغصه يمزق الطعام مجراه فحينما يقضى الطعام فى الحلقوم يأخذون جرعة من الحميم ليسيغوا الطعام فليس هناك مـــدة بين الطعام وإساغته فعبر بالفاء . (ثم . إن لهم عليها لشوبا من حميم) ثم إن لهم على الطلع والشوك الذى أخذ من الشجرة فالضمير عائد على الشجرة لخلطا من الصديد الذى يخرج من أجسادهم والماء الحار . لشوبا قرىء بفتح الشين وضمها فيكون معنى الفتح مصدراً ومعنى الضم هو اسم لما يشاب به والجار والمجرور صفة لشوباً وهذه الصفة أفادت أن هـــذا الشراب الممزوج بالصديد والماء بلغ الذروة فى الحرارة ولم يلطف الصديد من حرارته .

أقسام جهنم :

« ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » تكشف هذه الآية عن تقسيم جهنم إلى أقسام ودركات فهناك قسم أعد لتناول طعام أهلها فهم يساقون إلى هذا الموضع فيأكلون طعاما لا يسمن ولا يغنى من جوع ويشربون شرابا لا يروى لهم ظمأ ثم يردونهم إلى مقارهم ويؤيد هذا قراءة ابن مسعود ثم إن منقلبهم إلى دركات الجحيم .

---

(١) الواقعة آية ٥١ — ٥٤

حجة أهل الشرك فى عبادتهم ودحضها :

(إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون) معانى الكلمات ألفوا وجدوا — آثار : جمع أثر وهو حصول ما يدل على وجود الشيء ويهرعون : يسرعون .

هذا استئناف يراد به تعليل استحقاقهم للعذاب الذى سبق ذكره والقوم ليس لهم حجة فى شركهم إلا أنهم قلدوا آباءهم الضالين دون النظر والتدبر فى عبادتهم .

وهذه الآية تبين سفه هؤلاء الأبناء وضآلة عقولهم فالتقليد أعماهم وألغى أفئدتهم ولما كان القوم قد بلغوا شأوا بعيدا فى خفة العقل وضحالة التفكير عبر الله تعالى عن ذلك بكلمتى ألفوا ويهرعون اللتان تفيدان مفاجأة آثار آبائهم والإسراع إليها . فالإهراع : الإسراع بحث فيكون فيه شدة كأنهم استنفروا إلى السير على دين آبائهم ولقد أفاد بناء الفعل يهرع للمفعول للإشارة إلى مزيد الرغبة فى الإسراع فكأنه دفعهم إلى الاستنفار والرغبة الملحة فيه يقول الإمام الرازى (لو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى)[1] .

القصص القرآنى وبيان العبرة منه :

(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين.فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين) كل من اللامين فى لقد الأولى والثانية واقعتان جواب قسم تقديره والله لقدوالتكرار لإبراز كال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين والضمير فى قبلهم يعود على أهل مكة

(١) مفاتيح الغيب ﺣ ٧ ص ١٤٢

والضمير فى « فيهم » يعود على الأولين . ومنذرين إسم فاعل من أنذر والمنذرين اسم مفعول من هذا الفعل والإنذار هو التخويف والخطاب فى قوله فانظر للنبى ﷺ أو لكل من يتأتى منه التمكن من مشاهدة آثارهم والاستثناء منقطع لأن ما قبله وعيد وهم لم يدخلوا فى هذا الوعيد .

تفسير الآيات :

ساق الله تعالى حديثا مجملا عن سلوك الأمم السابقة مع أنبيائها ليكون تسلية وتسرية لرسول الله ﷺ فالله تعالى أرسل الرسل فضل أكثر الأقوام وأبوا ان يؤمنوا فكانت نهايتهم الهلاك .

الهدف من القصص القرآنى :

١ — للقصص تأثير نفسى على الإنسان من ايام طفولته الأولى إلى ان ينصرم آجله فينام فى طفولته على صوت والديه يقصان عليه قصصاً يروح عنه فكلما يفع نما معه حب القصة فإذا وردت القصة فى القرآن فإنه يستميل النفس البشرية إليه ويكون قد اصاب الوجـــدان البشرى بأسلوبه .

٢ — لقد كان القصص لدى العرب لوناً من ألوان اللسن والأدب وكان حديثهم فى سمرهم فجاء القرآن بها والنفس لما ألفت اميل ومن جهة اخرى كانت جانبا من جوانب إعجاز القرآن وتحديا لهم فى فن من فنون الأدب .

٣ — يعرض القصص القرآنى صوراً من حياة الأمم السابقة ويسوق طرفاً من أحاديث الرسل إليهم ويعرض مشاهد الاضطهاد والإيذاء الذى صب على الرسل وعلى من آمن معهم وابرز القصص القرآنى صبر أهل

الإيمان وجلدهم وأبان عن عزائم الرسل التى لم تثنها الشدائد والرزايا عرض هذه الأطراف القصصية لتحفز الرسول ﷺ على المضى فى سبيل دعوته وأن لا يعبأ بالقوم ومن جانب آخر تكون دروساً للمؤمنين يتعلمون الصبر على الشدائد فلا يبالون بالمصائب ولقد ساق القرآن والآيات التى تشير إلى هذا المعنى ومنها :(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)(١) .

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين)(٢) .

(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم)(٣).

ولقد لفت الرسول ﷺ أنظار أصحابه إلى ألوان الاضطهاد التى لاقاها المؤمنون السابقون يقول خباب (أتيت النبى ﷺ وهو متوسد برده وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت ألا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه فقال لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله زاد بيان والذئب على غنمه)(٤) .

---

(١) البقرة آية ٢١٤

(٢) الإنعام آية ٣٤

(٣) الاحقاف آية ٣٥

(٤) البخارى حـ ٥ ص ٥٦ — ٥٧

٤ — ورود القصص القرآنى فى كتاب الله جعله أقساما وفنونا وذلك أدعى للإقبال عليه وتلاوته وأنفى للسآمة والملل مما لو كان كله فناً واحداً كأن يكون أحكامافقط فإذا قلبت المصحف وجدت فنونا ثلاثة علم التوحيد وعلم الأحكام وعلم القصص وورود القصص القرآنى لتقرير هذه العلوم والله سبحانه وتعالى يسوق طرفا من قصة واحدة فى غرض دينى ثم يسوق الطرف الآخر منها فى غرض آخر لأن بذكر القصة ينشرح الصدر ويطرب القلب .

(قال فى كتاب سبق الغايات فى نسق الآيات «اعلم أنه سبحانه وتعالى من عادته فى هذا الكتاب أن يمزج فيه الأنواع الثلاثة بعضها ببعض أعنى علم التوحيد وعلم الأحكام وعلم القصص والمقصود من ذكر القصص إما تقرير الدلائل للتوحيد وإما المبالغة فى إلزام الأحكام والتكاليف وهذا الطريق هو الأحسن لأن بقاء الإنسان فى النوع الواحد يوجب الملال فإذا انتقل من نوع إلى نوع فإنه ينشرح صدره ويفرج قلبه فكأنه سافر من بلد وانتقل من بستان إلى بستان ومن تناول طعام لذيذ إلى آخر مثله ولا شك أنه يكون أشهى)(١) .

٥ — مجىء القصص القرآنى فى كتاب الله برهان على صدق رسالة الرسول عليه السلام فإن الله ساق قصصا يعجز عن الإتيان بمثله الأدباء والبلغاء والبشرية قاطبة والقرآن شاهد على ذلك وهذا يدل على أنه من عند الله لا من عند محمد لقد تحدث عن ذلك عقب قصة نوح فقال(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)(٢) .

---

(١) الدكتور الراجحى فى كتابه «النهج القويم فى علوم القرآن الكريم» ص ١٢

(٢) هود آية ٤٩

وقال عقب قصة مريم (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون)(١) .

وقال عقب قصة موسى (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون)(٢) .

٦ — ورود القصص القرآنى هيأ للمسلمين الاطلاع على أحوال الأمم الماضيه وسلوكهم مع رسلهم ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين . ولما سجل الله أحداثهم بهذه الصورة الواردة فى القرآن درأ الرسول ﷺ الشبه التى أثيرت حول هؤلاء الرسل مثل درئه لشبهة إبراهيم ولوط ويوسف عليهم السلام .

قال عليه السلام (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموت قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعى) .

ومع هذا يعد القرآن أصدق كتاب تحدث عن الأمم السابقة . ولما تحدث عن الأمم السابقة حديثا مجملا موجزا ولفت الأنظار إلى التأمل فى عاقبتهم ساق قصة بعض هؤلاء مع شىء من التفصيل .

---

(١) آل عمران آية ٤٤
(٢) القصص آية ٤٤ — ٤٦
(٣) صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٢٣

أولا : قصة نوح :

(ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين) .

ولقد ساق الله تعالى دعوة نوح لقومه فى آيات أخر فلم تزد هذه الدعوة قومه إلا نفورا واستكبارا ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . لم تلن لهم قناة . ولم يخشع لهم قلب ولقد ذكرت . هذه الآيات الجزء الأخير من أحداثهم مع نوح حين أيقن أنهم لن يؤمنوا وأنه لا يتوقع منهم قبولا لدعوته فى المستقبل فدعا عليهم فيصور الله حاله بقوله (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) دعا ربه كما صرحت آية القمر وآيات نوح بذلك فلقد صورت الآيات وجدانه (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر)(١) .

وقال تعالى (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا)(٢) .

فالمراد بنداء نوح دعاؤه على قومه . ولقد لبى الله نداءه ودل العطف بالفاء على سرعة القبول . واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف تقديره فوالله لنعم والمخصوص بالمدح محذوف تقديره لنعم المجيبون نحن والجمع دليل العظمة ويكون معنى (فلنعم المجيبون) أى إنا أجبناه أحسن الإجابة وانتقم الله من القوم بأبلغ ما يكون ولقد أفصحت آيات أخر عن هذا الانتقام بقولها (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا)(٣) .

---

(١) القمر آية ١٠ (٢) نوح آية ٢٦ ، ٢٧
(٣) القمر آية ١١ ، ١٢

وعم الطوفان أرض الكفر فهلك القوم عن آخرهم (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين).

تسوق هاتان الآيتان نعمتين أنعم الله بهما على نوح وهما :ـ

الأولى : نعمة النجاة من التكذيب والأذى والغرق . يفيد ذلك قوله (من الكرب العظيم).

الثانية : بقاء الذرية التى آمنت وهلك من كفر منها ولقد ذهب فريق من العلماء إلى أن الذرية هى ذرية نوح وأما الذين معه فلم يعقبوا نسلا واستدلوا بهذه الآية (وجعلنا ذريته هم الباقين) ولقد ذهب فريق آخر إلى أنها ذرية نوح ومن آمن معه بدليل قوله تعالى فى آية أخرى (ذرية من حملنا مع نوح) [1] والفريق الثانى على حق ويمكن تفسير دليل الفريق الأول بأن المراد بالذرية الباقية هى ذرية المؤمنين نوح ومن معه : فتكون ذرية المؤمنين ذرية نوح مجازا فهو الأب الروحى لها . ولقد وردت أخبار تشير إلى أن ذرية نوح ثلاث : سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم .

(وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين) يبين الله تعالى أن ذكر نوح لم يذهب بذهابه وانتقاله إلى الله تعالى بل أبقى الله له ثناء حسناً بين الأنبياء والأمم الواردة إلى يو القيامة ثم سلام من الله على نوح فى الملائكة والثقلين جميعا فيظل مذكورا بينهم ولقد فعل الله ذلك به لأنه يجازى على الاحسان إحسانا فلقد جاهد من أجل الله فدعا قومه ليلا ونهارا ألف سنة إلا خمسين عاما وصبر طويلا على أذاهم ولم يقصر

---

(١) الإسراء آية ٣

فكان من الراسخين فى الإحسان وكان نابعا من إيمانه لجزاه الله على إحسانه هذا إحسانا بإغراق أعدائه . (وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين) مفعول تركنا يجوز أن يكون محذوفا تقديره ثناء حسنا وعلى هذا تكون آية وتركنا عليه فى الآخرين مستقلة وسلام على نوح كلام مستقل أيضاً وهو دعاء من الله تعالى . ويجوز أن تكون جملة سلام على نوح هى مفعول تركنا وفيه معنى الأمر أى تركنا عليه فى الآخرين أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة وقرأ عبد الله بن مسعود سلاما وهى شاذة وهو مفعول به لتركنا . وقيل معنى تركنا قلنا والقول مقـــدر وينطبق هذا الإعراب على مايشبهها من هذه السورة .

(إنا كذلك نجزى المحسنين) هـذه الجملة مستأنفة لا محل لهـا من الإعراب المراد بها تعليل مجازاته بإحسانه . وكذلك جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره جزاء فيكون تقديرا لكلام جزاء كذلك . وهكذا فى الجمل المشابهة لها فى هذه السوره (إنه من عبادنا المؤمنين) هذه الجملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب تعليلية عللت إحسانه بإيمانه . (ثم أغرقنا الآخرين) هذه الجملة معطوفة على ونجيناه وأهله فيكون الترتيب حقيقيا لأن الله نجى نوحا وأهله بركوب السفينة ثم أغرق الكافرين ويجوز أن يكون هذا الترتيب رتبياً فمقام نوح هو مقام الإحسان ومقام قومه الكفر والهلاك وشتان بين المقامين .

قصة إبراهيم عليه السلام

(وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين)

ساق الله تعالى قصة إبراهيم عقب قصة نوح عليهما السلام لما يأتى :-

١ ــ أصول دينهما واحد .

٢ ــ التصلب فى الدعوة ولم ينيا فى دعوتيهما .

٣ ــ النجاة من الهلاك فنوح نجاه الله من الغرق وإبراهيم نجاه من الحرق .

٤ ــ كان نوح بمثابة الأب للبشر بعد الغرق وإبراهيم أبو الأنبياء .

ولقد تحدثت آيات هذه السورة عن مشهدين من مشاهد قصة إبراهيم عليه السلام أولهما : الإشارة إلى أصل دعوته وإخلاصه فيها . ودعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله الواحد . وهمهم به ليقتلوه . وحماية الله له من شانئيه وهذا المشهد تكرر فى بعض سور القرآن . وثانيهما : مشهد لم يذكر ولم يعرض إلا فى هذه السورة وهو حادث الرؤيا والذبح والفداء .

إخلاص إبراهيم عليه السلام :

(وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم)

يقول صاحب مختار الصحاح (وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره وتشيع الرجل : ادعى دعوى الشيعة ، وكل قوم أمرهم يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع. وقوله تعالى «كما فعل بأشياعهم من قبل» أى بأمثالهم من الشيع الماضية) (١)

---

(١) مختار الصحاح ص ٢٩٤

فيكون المعنى : وإن ممن تابع نوحا فى أصل دعوته وهو التوحيد وإثبات رسالته وعبادة الله تعالى وإثبات البعث والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ابراهيم عليه السلام فالضمير فى شيعته يعود على نوح وقال الكلبى الضمير يعود على محمد أى من شيعة محمد لابراهيم عليه وعلى رسولنا السلام . والأول هو الأظهر لأن نوحا سبق ذكره وكان بين نوح وبين ابراهيم . رسولا الله هود وصالح وسبق نوحا ثلاثة آدم وشعيب وإدريس ولما كان الإخلاص غير ملموس للخلق ولم يطلع عليه إلا الله بين اخلاصه فى صورة محسوسة فقال (إذ جاء ربه بقلب سليم) شبه اخلاصه بمجيئه بجامع التخلى عن العلائق ثم حذف المشبه وأقام شيئا من لوازمه وهو سلامته على سبيل الاستعارة التصريحيه التبعيه . ولقد أكد هذا الإخلاص التعبير بقوله سليم أى سالم من جميع الآفات كفساد العقائد والنيات السيئة والخلال المذمومه .

و (إذ) ظرف والذى عمل فيه النصب فعل محذوف تقديره اذكر . وظهرت ثمرة إخلاصه فى دعوته لأبيه وقومه وإنكاره عبادتهم فقال ماذا تعبدون فما مبتدأ وذا اسم موصول وهو وصلته خبرما وأريد بهذا الاستفهام والإنكار درء شبهة : قد يجول بالجائشة (١) أنه سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى فلم يؤمن بادىء ذى بدء وطلب أن يطلعه على ذلك فقال (رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم) (٢) . وهذا ليس شكا ولقد نفى الرسول ﷺ عن إبراهيم الشك فقال (نحن أحق بالشك

---

(١) الجائشة النفس
(٢) البقرة آية ٢٦٠

من إبراهيم إذ قال « رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » (١) . وهذا الحديث فيه نفى الشك عن إبراهيم إذ المعنى لو شك إبراهيم فى قدرة الله لشككنا ولكن لم نشك فإبراهيم لم يشك وكان سؤال ابراهيم من قبيل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيده الاستدلال ولقد تصدى لقومه قائلا لهم (أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين) .

الإفك . الكذب والباطل والعامل فى إفكا وآلهـة قوله تريدون وموقع إفكا من الإعراب إما مفعول لأجله .

وعلى ذلك يكون آلهة مفعول به ويكون المعنى أتريدون آلهة دون الله إفكا وإنما قدم المفعول به على الفعل للعناية به وقدم المفعول لأجله على المفعول به لأنه كان الأهم لأنه يقرر أنهم على إفك وإما أن يكون مفعولا به وعلى ذلك يكون قد جعل الآلهة نفس الإفك ويكون آلهة بدلا منه وإما أن يكون حالا مقدرة فيكون المعنى أتريدون آلهة آفكين أو ذوى إفك والمعنى العام لها : الذى تعبدونه من هذه الأصنام إفك وعمدتم إليها افتراء وحاشا الله أن يكون فى صورة هذه الآلهة ثم سألهم سؤال إنكار فقال فما ظنكم برب العالمين ؟ ولما كان الإستفهام الإنكار لم يحتج إلى جواب.

نظرته إلى النجوم :

(فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين) .

ذكر الإمام الفخر أوجها ثمانية فى سبب نظره فى النجوم ومعنى سقيم (الأول : أنه نظر نظـرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامه كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هى فى

---

(١) البخارى ح٦ ص ٣٩

تلك الساعة وقال إنى سقيم فجعله عذرا فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقا فيما قال لأن السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم .

الثانى : أن قوم ابراهيم كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها بها على غائب الأمور فلذلك نظر إبراهيم فى النجوم أى فى علم النجوم فى معانيه لا أنه نظر بعينه إليها وهو كما يقال فلان نظر فى الفقة وفى النجوم وإنما أراد أن يوهمهم أن يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال إنى سقيم سكتوا إلى قوله . وأما قوله إنى سقيم فمعناه سأسقم كقوله إنك ميت أى ستموت .

الثالث : أن قوله فنظر نظرة فى النجوم وهو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثه وقوله إنى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ .

الرابع : قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال إنى سقيم أى هذا السقم واقع لا محاله .

الخامس : إن قوله إنى سقيم أى مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك قال تعالى لرسوله محمد ﷺ « لعلك نفسك » .

السادس : أنا لا نسلم أن النظر فى علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها لظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس

بباطل وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله إنى سقيم على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك فى أكثر أحواله عند حصول حالة مكروهه إما فى بدنه وإما فى قلبه وكل ذلك سقيم .

السابع : قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذب ورووا منه حديثا عن النبي ﷺ انه قال « ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغى أن يقبل لأن نسبة الكذب الى الراوى أولى ثم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذبا خبرا شبيها بالكذب .

الثامن : أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فإن الأشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال انها منجمة أى متفرقة ومنه نجوم الكتابة والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله سقيم) (١)

هذه الأوجه فى الميزان :

إن هذه الأوجه ضعيفة ودليل ضعفها ما يأتى : الأول : أن النجوم لا تدل على أمر يقع مستقبلا لأنه من الأمور الغيبية فليس هناك علاقة بين وقوع الأحداث والنجوم فالقول بأنه كانت تعتريه الحمى رجما بالغيب ولا أساس له . وكذلك يقال فى الوجه الثانى فإذا قال أعرف ما تعرفون يكون هذا كذبا والكذب عليه محال : الثالث كيف يكون نظره فى النجوم لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب أهى قديمة أو حادثة ؟ وكيف يعنى سقيم القلب غير عارف بربه ؟ أليس هذا افتراء على أبى الأنبياء ؟ بلى إن موضوع النظر كان بعد بلوغه وبعد بعثته واحتكاكه بالقوم . كان بعد بعثته

---

(١) مفاتيح الغيب ج٧ ص ١٤٤ - ١٤٥

والدليل على ذلك ، العطف على حادثه النظر فى النجوم بالفاء فقال «فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم» ، وتحطيم الأصنام كان بعد البلوغ والبعثة .

الرابع : على ضوء ماقيل فى الأول والثانى يبطل الوجه الرابع .

الخامس : فسروا معنى سقيم تفسيراً مقبولا وتركوا معنى « فنظر نظرة فى النجوم » .

السادس : يقال فيه ماقيل فى الأول والثانى والرابع .

السابع : رده الإمام الرازى رحمه الله تعالى .

الثامن : كلام فيه تكليف وبعيد لتصريح آيات الأنعام بأحداث الكواكب والنجوم » .

والذى أراه :

أنه نظر فى النجوم نظرة تأمل واستدلال للوصول بهم إلى الله تعالى . فاستدل بأفولها وبزوغها وحركتها على حدوثها للقوم والتعبير اللغوى يشير إلى ذلك فإنه عدى نظر بفى مع أن الفعل يتعدى بإلى لتضمنه معنى تفكر فهو يتعدى بالفاء ثم بعد ذلك قال لهم إنى حزين على عبادتكم غير ربكم ففروا من الحق كالحمر المستنفرة كما صور القرآن الكريم حال مشركى مكة (فمالهم عند التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسوره)(١) ومدبرين إما حال أو مفعول مطلق لتولوا فإنه بمعنى الإدبار فلما تولوا عنه مدبرين ذهب ليكيدهم والانتقال بهم إلى دليل آخر لبطلان عبادتهم فحطم أصنامهم وترك كبيرهم .

---

(١) المدثر آية ٥٠ — ٥١

تحطيم الأصنام دليل على وجود الله ووحدانيته :

(فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا إليه يزفون ، قال أتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) .

يقول صاحب مختار الصحاح (وراغ إلى كذا . مال إليه سراً وحاد)(١) . لما تولى القوم مال إلى أصنامهم سراً وأمامها طعام القوم لتباركه وقبل أن يهوى عليها بمعوله إستهزأ بها قائلا لها « ألا تأكلون » فهذا حث لها على تناول الطعام وهو يعلم أنها لن تأكل ولكن قوله هذا على سبيل الاستهزاء . ولقد استبعد صاحب الفتوحات الإلهية أن يكون هذا استهزاء فقال (فهذا الاستهزاء غير ظاهر لأنه إذا كان عندها وحده منفرداً بها فلا يعقل استهزاؤه بها ولا بعابديها ولعل كان عنده من يسمع كلامه من سدنتها أو غيرهم)(٢) .

واستبعد كلامه لما يأتى :

١ - التعبير بقوله تعالى « فراغ إلى آلهتهم » أى أنه ذهب فى سرية من قومه فلم يكن هناك أحد .

٢ - لو كان هناك سدنة لقاتلوا إبراهيم ولمنعوه من تحطيمها أو لم يتركوه يعمل معوله فيها كلها . فقوله « ألا تأكلون » و « مالكم لاتنطقون » هذا استهزاء بها « فراغ عليهم ضربا باليمين » لقد استعمل بعض

---

(١) مختار الصحاح ص ٣١٠

(٢) الفتوحات الإلهية جـ٣ ص ٥٤٤

المفسرين راغ الثانية بمعنى ضرب ثم قالوا إن ضربا مصدر مؤكد لراغ وهذا استعمال فى غير موضعه إذ معنى راغ مال وحاد فيكون إبراهيم مال عليها وهو فى مستوى أعلى منها حتى يتمكن من تحطيمها . وضربا مصدر مؤكد لفعل هو حال من فاعله والتقدير فراغ عليهم يضربهم ضربا .

و « باليمين » يحتمل معنيين : الأول : الجارحة المقابلة للشمال وفيها معنى القوة لأن اليمين غالباً ما تكون أقوى الجارحتين وتكون الباء حرف جر وتكون للملابسة .

الثانى : أنه حطمها برا بيمينه التى حلفها فى قوله تعالى « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » وتكون الباء على هذا للسببية .

« فأقبلوا إليه يزفون » . قرأ حمزة يزفون بضم ياء المضارعة . وهذا الفعل من أزف يزف أى يحملون دوابهم على الإسراع . وقرأ الباقون بفتح الياء من زف يزف أى أقبلوا إليه مسرعين وأصل الزفيف العداء بسرعة وهو للنعام .

فأقبلوا إلى إبراهيم مسرعين بسبب تحطيم آلهتهم ولا تناقض بين القراءتين فلقد أفادتا الإسراع من القوم فبعضهم أتى راجلا مسرعا وهو الدانى وبعضهم أتى راكبا مسرعا وهو القاصى . ولقد أفادت هذه الآية أن إبراهيم حينما حطمها أتوا إليه مسرعين وأخذوه فكان معروفا لديهم وهذا معنى يخالف معنى قوله تعالى : (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين)[١] فإن معنى هذه الآية أنه كان مجهولا لهم فى أول الأمر ويمكن الجمع بين الآيتين بأن سربة منهم عرفوه من أول وهلة فأقبلوا إليه يزفون وطائفة منهم لم تعرفه أول الأمر فقال من فعل هذا بآلهتنا وهى

---

(١) الأنبياء آية ٥٩

ماعبرت عنه الآية الثانية . ولقد انتقل إبراهيم إلى دليل آخر بعد دليل تحطيم الأصنام سألهم سؤال إنكار وتوبيخ بعد أن حطمها ليذكرهم أنهم الصانعون لها فهى مصنوعة فقال « أتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وما تعملون » فالنحت البرى وما مصدرية ويكون بمعنى مفعول أى منحوتكم . وما الثانية ذكر صاحب الفتوحات فيها أوجها أربعة (أحدها أنها بمعنى الذى أى الذى تصنعونه فالعمل هنا التصوير والنحت . والثانى أنها مصدرية أى خلقكم وأعمالكم وجعلها الأشعرية دليلا على خلق أفعال العباد لله تعالى وهو الحق والثالث أنها استفهامية وهو استفهام توبيخ أى وأى شىء تعملون . والرابع : أنها نافية أى أن العمل فى الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئا والجملة من قوله والله خلقكم حال ومعناها حينئذ أتعبدون الاصنام على حالة تنافى ذلك وهى أن الله خالقكم وخالقهم جميعا ويجوز أن تكون مستأنفة)(١).

الثأر لآلهتهم :

انتقل إبراهيم بالقوم من دليل إلى آخر فتدرج بهم فى النظر فى النجوم وانتهى إلى الله تعالى . وحطم الأصنام للوصول إلى الله عز وجل وواجههم بدليل آخر وهو أتعبدون ما تنحتون وأمام هذه الأدلة النظرية والعملية تضاءلت شبههم وقرعت حجج إبراهيم عقائد أهل الكفر الباطلة ولما عجزوا عن مواجهة الحجة بالحجة واستعملوا مايستعمله الجاهل وهو رد الفكر بالقوة قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » لقد بنى القوم بنياناً هذا البنيان كان عظيما كما قال ابن عباس بنوا حائطا من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون

---

(١) الفتوحية الإلهية حـ ٣ ص ٥٣٨ .

ذراعاً وملأوه ناراً فطرحوه فيها ويدل على عظم تلك النار لفظ بنيانا فإن المعنى يعظم بكثرة حروف الكلمة ويدل على هذا أيضا قوله « فألقوه فى الجحيم » فالجحيم (اسم من اسماء النار — أى نار الله — وكل نار عظيمة فى مهواة فهى جحيم)(١).

وأرادوا به شرا فجعلهم الله الأذلين لأمرين :

الأول : أن حجج إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام أفحمتهم فانهزموا .

الثانى : صرف ضرر النار عن إبراهيم فقد سلبها الله خاصيتها وصارت الحرارة العظيمة برداً وسلاما عليه . كما قال الله فى آية أخرى (قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم)(٢) فكانت الغلبة له .

هجرة إبراهيم :

(وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) .

بعد أن لاح فى الأفق انتصار التوحيد على الشرك وأدرك عليه السلام أن دعوته لا تجد آذانا صاغية ولا قلوبا واعية وقذفه فى النار ليس ببعيد قال « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » تحتمل هذه الآية معنيين :

الأول : إنى مهاجر من تلك الأرض التى جحد أهلها خالقهم فإنى ذاهب إلى مواطن أخرى أدعو إلى الله فيها .

الثانى : إنى ذاهب إلى ربى أى لا أعمل شيئا إلا لله وهو يظهر اخلاصه والمعنى الأول أولى لأنه بين هجرته إلى الشام والتى قام بها إبراهيم عليه

---

(١) مختار الصحاح ص ٤٣٧ .

(٢) الأنبياء آية ٦٩ .

السلام . وهناك فرق بين قول إبراهيم « سيهدين » فهذا بصيغة الجزم وبين قول موسى عليه السلام « عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » فهـذا بصيغة الترجى قال الإمام الرازى (قلنا العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله تعالى فقد يجزم بحصول المقصود وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن العالمين فحينئذ يستحضر نفسه فلا يجزم بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع)(١) .

وأقـول :

إن السر فى جزم إبراهيم إنه كان نبيا ووعـده الله بهدايته فى أرض المهجر ووعد الله لا يتخلف فاستعمل صيغة الجزم أما موسى فلم يكن نبىء بعد وخرج من مصر إلى مدين فلم يكن هناك وعد من الله فاستعمل صيغة الترجى . ولقد رحل إبراهيم إلى فلسطين ومعه زوجه سارة وابن أخيـه لوط وزوجه كما قال فى سورة العنـكبوت (فآمن له لوط وقال انى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم)(٢).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله فى هجرة إبراهيم (« إنى ذاهب إلى ربى » إنها الهجرة وهى هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية هجرة يترك وراءه فيها كل شىء من ماضى حياته يترك أباه وقومه وأهله وبنيه ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض وبهؤلاء الناس ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شىء طارحاً وراءه كل شىء مسلماً نفسه لربه لا يستبقى منها شيئاً موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه وينقلها فى الطريق المستقيم إنهـا الهجرة الكاملة من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ١٤٨ .

(٢) العنـكبوت آية ٢٦ .

شيء إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين)[١] .

طلبه للغلام الصالح :

ترك إبراهيم عشيرته وقومه وأدبر عن الأرض التى فيها نبت وعلى أديمها درج وترك كل مألوف له فى حياته فضرع إلى الله تعالى أن يرزقه غلاما صالحا فقال (رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم) . تستعمل الهبة غالبا فى الولد وجاءت قليلا فى الأخ وأراد بهذا الدعاء أموراً ثلاثة .

الأول : أن يكون ذكراً .

الثانى : أن يبارك فيه حتى يصل إلى مرحلة الشباب .

الثالث : أن يكون حليما فى سلوكه . فمن حرف جر يفيد التبعيض والصالحين جمع مذكر سالم والصلاح يكون عند التكليف . وحد التكليف البلوغ فالصلاح خير من الغنى والنسب والشرف والجاه فهو زاد فى الدنيا وزاد إلى الله فلذلك طلبه إبراهيم لنفسه فقال (رب هب حكما وألحقنى بالصالحين) وطلبه لولده فى هذه الآية وأعقب الله دعاءه بالبشرى فقال « فبشرناه بغلام حليم » إجابة لطلبه وظهر حلمه عند بلاء الذبح وهذا الغلام هو إسماعيل .

الذبح والفداء :

بعد أن ساق الله تعالى البشرى بهذا الغلام الحليم أعقب ذلك بما يدل

---

(١) فى ظلال القرآن حـ٢٣ ص ٦٢ .

على حلمه وصلاحه فقال (فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم) . يفع الغلام وبلغ الشباب وحد المسئولية فى السعى من أجل لقمة العيش وأحبه إبراهيم حبا شديداً فاختبر فى حبه هل حبه لله أقوى أم حب ولده اسماعيل ؟

آراء العلماء فى الذبيح :

اختلف العلماء فى الذبيح إلى ثلاثة مذاهب : الأول : وهم : عمر وعلى والعباس وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل قالوا إن الذبيح إسحاق .

واستدل هؤلاء بما يأتى :

١ — قوله تعالى « إنى ذاهب إلى ربى » وفى هذا إجماع على أن المراد هجرته إلى الشام وقوله تعالى فى آخر الآية « فبشرناه بغلام حليم » وهذا الغلام ليس إلا إسحاق لأنه كان فى الشام ، ولما ختم الله تعالى الآيات التى ذكرت أحداث الذبح قال « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين وبشره بالنبوة لأجل أنه تحمل الشدائد فى الذبح .

٢ — (قال يوسف عليه السلام للملك فى وجهه ترغب أن تأكل معى وأنا والله يوسف بن يعقوب بنى الله ابن اسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله)[1] .

(حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن على بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس

(١) تفسير ابن كثير ج٧ ص٢٧ .

بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره : قال : هو إسحاق)(١) .

الرد على هذه الأدلة :

هذه الأدلة كانت رجما بالغيب فلقد فسروا الآيات دون أن يكون هناك تفسير مرفوع إلى الرسول ﷺ وهذا يحتمل الخطأ والصواب ونص الآيه ليس معهم لحين هاجر إبراهيم ذهب إلى فلسطين . فاتخذوا من أرض المهجر التى بالشام ذريعة للقول بأنه إسحاق . فليست أحداث الذبح فى الشام بل كانت بالقرب من مكة بالحجاز فإبراهيم كان يقوم بزيارة اسماعيل بين الفنية والفنية ولو كان إسحاق لكان مسرح الأحداث فى بيت المقدس وأما ما استدل به هؤلاء بكلام يوسف فهذا من الاسرائيليات ولا يصلح أن يكون دليلا مستقلا وأما الحديث فضعفه ابن كثير فقال(فى اسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصرى متروك وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحديث)(٢) .

الثانى : روى فى رواية أخرى عن عمر وابن عباس وبعض التابعين سعيد بن المسيب والشعبى ويوسف بن مهران ومجاهدو الربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظى والكلبى وعلقمة أن الذبيح اسماعيل .

حجج هؤلاء :

ربما احتج هؤلاء بما يأتى :

(الأول : أن رسول الله ﷺ قال « أنا ابن الذبيحين ، وقال له أعرابى يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال « إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن

---

(١) المرجع السابق ص٢٨

(٢) تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٣٨

أحد ولده فخرج السهم على عبدالله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والذبيح الثانى إسماعيل .

الثانى : نقل عن الأصمعى أنه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعى أين عقلك ومتى كان إسحاق بمكة وإنما كان إسماعيل . بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة .

الثالث : أن الله تعالى وصف اسماعيل بالصبر دون اسحاق وفى قوله « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » (١) ووصفه بصدق الوعد فى قوله « إنه كان صادق الوعد » (٢)

الرابع : قوله فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فنقول لو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك فالأول باطل لأنه تعالى لما بشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه وإلا حصل الخلف فى قوله ومن وراء اسحاق يعقوب ، والثانى باطل لأن قوله « فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعى ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه وذلك ينافى وقوع هذه القصة فى زمان آخر .

الخامس : حكى الله تعالى عنه أنه قال « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » ثم طلب من الله تعالى ولدا يستأنس به فى غربته فقال « رب هب لى من الصالحين » وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الواحد لأن طلب الحاصل محال وقوله هب لى من

---

(١) الأنبياء آيه ٨٥
(٢) مريم آيه ٥٤

الصالحين لا يفيد إلا طلب الولد الواحد وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكان قوله من الصالحين لا يفيد إلا طلب الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم فى الوجود على اسحاق .

السادس : الأخبار الكثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكة ولو كان الذبيح اسحاق لكان الذبح بالشام) (١)

وهذه الأدلة لم يقبلها صاحب الفتوحات . ورد بعضها فقال (وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع أما قولهم كيف يأمر بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا فإنه يحتمل أن يكون المعنى وبشرناه بنبوته بعد أن كان من أمره ما كان قاله ابن عباس ولعله أمره بذبح اسحاق بعد أن ولد اسحاق يعقوب أو يقال لم ير فى القرآن أن يعقوب يولد له من اسحاق . وأما قولهم ولو كان الذبيح اسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس . فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدم) (٢)

ونص ما نقله مقدما (قال سعيد بن جبير أرى إبراهيم ذبح إسحاق فى المنام فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى فلما صرف الله عنه الذبح أمره أن يذبح الكبش فذبحه وسار به إلى مسيرة شهر فى روحة واحدة وطويت له الأودية والجبال) (٣) . وهذا ما قاله صاحب الفتوحات وهى واهية أمام حجج القائلين بأن الذبيح اسماعيل .

---

(١) مفاتيح الغيب حـ٧ ص١٤٩ ، ١٥٠
(٢) الفتوحات الإلهية حـ٣ ص ٥٤٩
(٣) المرجع السابق ص ٥٤٨

واستئناسه بقول سعيد بن جبير ليس دليلا على أن الذبيح إسحاق لأن هذا قول سعيد ورأيه وليس حديثا عن الرسول عليه الصلاة والصلام .

ورأيى : أن الذبيح اسماعيل لقول الله تعالى (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق) (١) فقـدم إسماعيل على إسحاق فالذبيح اسماعيل ولوضوح الأدلة السابقة على ذلك ولقداستقى القائلون بأنهاسحاق هذا الفكر من كعب الأحبار اليهودى الذى أسلم وقد تشيع بأنه اسحاق حينما كان على دين قومه وبث ذلك بين المسلمين ولقد قال فى هذا الحافظ ابن كثير (هذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم فى الدولة العمريه جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه فربما استمع له عمر فترخص الناس فى استماع ماعنده ونقلوا غثها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف مما عنده وقد حكى البغوى هـذا القول بأنه اسحاق عن عمر وعلى وابن مسعود والعباس ومن التابعين عن كعب الأحبار) (٢)

ولقد ذهب إلى هذا أيضا الأستاذ عبد الوهاب النجار فقال (ولا شك أن الضمير فى عليه أى وباركنا عليه وعلى اسحاق — راجع إلى الذبيح فالإتيان بالبشرى باسحاق بعد ذكر القصة صريح فى أن اسحاق غير الغلام الذى ابتلى الله ابراهيم بذبحه وعود الضمير إلى الغلا الذبيح وذكر اسم اسحاق معه صريحا يقتضى التغاير بين الذبيح واسحاق) (٣) .

---

(١) ابراهيم آية ٣٩
(٢) تفسير ابن كثير حـ٧ ص ٢٨
(٣) قصص الأنبياء صـ ١٠٢

الثالث : الوقت والإمساك عن تعيين الذبيح ونكتفى بما قاله الله تعالى. وهذا المذهب يبغى السلامة وأيضا تعيين الذبيح ليس من الأمور العقائديه. ولقد اتجه الزجاج هذا الإتجاه .

(فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاءالله من الصابرين) .

هذه الآيه تعطى المعانى الآتية :ـ

١ — أن الغلام شاب لأنه أصبح قادرا على أن يسعى على عيشه (فلما بلغ معه السعى) .

٢ — تكليف إبراهيم بذبح ولده مناما ، سر الأمر فى المنام أن هذا التكليف فيه مشقة وآلام على نفس الشيخ إبراهيم الذابح وله نفس الوقع على نفس الشاب لهذا كان التكليف مناما وبالاستقصاء يدرك الباحث أن رؤى الأنبياء وحى كما قال الله تعالى فى يوسف (إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين)(١). وكما قال الله تعالى فى شأن رسولنا عليه السلام (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) (٢) . ولقد عبر ابراهيم بالفعل المضارع مع أن السياق يقضى الماضى إما لاستحضار صورة الأمر فى الذهن وإما حكاية حال ماضية .

٣ — الطاعة المطلقة لله تعالى : أراد إبراهيم عليه السلام أن يتبوأ الإبن مقام الرضا من الله تعالى وأن يسمو بطاعته فعرض عليه الأمر ولم

---

(١) يوسف آية ٤
(٢) الفتح آيه ٢٧

يأخذه على غـــرة لينال الإبن ماينال الوالد من الثواب ولذة الطاعة ، وحلاوة الاستسلام ولهـذا كانت إجابة الإبن (افعل ماتؤمر) وحذف الجار والجرور يدل على العموم وهـذا يعنى افعل كل ما أمرك به الله من ذبح وغير .

٤ ــ اتصاف الخليل وولده بالصبر لحين عرض عليه الذبح لم يكن هذا سهلا على قلبه أو يسيرا على نفسه ومع الآلام انصاع لأمر الله فهذا صبر على البلاء والإبن قال له على سبيل التأكيد ستجـــدنى إن شاء الله من الصابرين ومع هذا التأكيد بالسين لم يقل صابراً بل الصابرين لأمرين :-

الأول : أن من الناس من ابتلى أكثر من هذا .

الثانى : أنه جعل هذا البلاء أخف من بلاء غيره فعد نفسه معهم ولم يجعل نفسه قدوة لهم .

(فلما أسلما وتله للجبين) برز قبل الطاعة فى الآية الآنفة وفى هذه تتجلى الطاعة فى أسمى صورها وهو التنفيذ إن إبراهيم لم يدع العواطف تطيف بجاشته لأن هذا أمر الله وهو أرحم من إبراهيم على الولد فأسلم الأمر لله وأكب الولد على جبيـــنه أى على المنطقة التى تعلوا الصدغ فللإنسان جبينان عن يمين الجبهة وشمالها فيستسلم ولا يتحرك امتناعا فانقاد لأمر الله تعالى ولقد أوضحت الآية ما اختلف حوله العلماء واضطرب الفكر بشأنه . فقالوا قال الولد لأبيه (لاتنظر إلى فترحمنى ولكن اجعل وجهى إلى الأرض .فأخذ السكين فأمر بها على حلقه فانقلبت فقال له مالك فقال انقلبت السكين فقال اطعنى بها طعنا وقال بعضهم كان كلما قطع جزءاً التأم وقالت طائفة وجد حلقة نحاسا أو مغشى بنحاس وكان كلما أراد قطعا وجد منعا)(١)

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ ٣ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨

فهذا الوصف يفتقر إلى نص صحيح فالمفسرون قد استقوا هذا من الإسرائيليات ولكن صريح الآية يحسم الخلاف وينتهى الأمر إلى أنه صرعة على الجبين .

وعلم الله صدق النيتين نية الذابح ونية المذبوح . فالابتلاء قد تم والاختبار قد وقع وثمار البلاء قد بدت وغايات الامتحان قد تحققت ولم يعد إلا الألم البدنى والدم المهراق والله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعذب العباد فإنهم متى أخلصوا لله وهموا بالأداء فقد أدوا وحققوا التكليف فناداه الله تعالى بقوله (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ۝ إن هذا لهو البلاء المبين ۝ وفديناه بذبح عظيم).

ناداه الله تعالى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا هنا سؤال يفرض نفسه إن إبراهيم لم يقم بالذبح فعلا ولكن تهيأ فلماذا قال الله له صدقت الرؤيا . قال الله له ذلك لأنه تهيأ وبذل كل جهده وأضجع ولده وصرعه وعلم الله صدق نيته فلم يبق إلا إراقة الدم وقطع اللحم فكأنه نفذ الأمر « إنا كذلك نجزى المحسنين » . نجزى المحسنين على هممهم بالخير وعملهم له . أى مثل ذلك الجزاء وهو الثواب العظيم على هذا البلاء . وجملة وناديناه جواب لما وتكون الواو زائدة .

« إن هذا لهو البلاء المبين » .

أى اختبار كهذا الاختبار . أمر الشيخ العجوز الذى رزقه الله شابا ليكون خليفة له وامتداداً لعمره يذبح ولده ويعرف الولد الأمر فينقاد لأمر الله ويتحمل الآلام النفسية ويكبه والده .

ويطيع غير عابىء بآلام الذبح فهذا . اختبار ظاهر « وفديناه بذبح عظيم » قال الله وفديناه مع أن الفادى إبراهيم وهو الذى ذكى المذبوح لأن الله هو الذى منحه المذبوح ورضيه فداء .

ولقد قيل إن هذا الذبيح يحتمل :

أن يكون الكبش الذى قدمه هابيل قربانا فقبله الله وقام قابيل بتقله فكان يرعى فى الجنة أو أن الله أرسله من الجنة بعد أن رعى أربعين خريفا .

وأقول :

لماذا نرفع الأمر إلى هذا الحد ونجعله يتجاوز حدود العادة ؟ إن المنطقه صحراوية بها النباتات التى تسوم فيها الحيوانات الضأن والمعز وغيرهما فساق الله تيساً جبلياً إلى إبراهيم وأوحى إليه أن يذبحه فهو الفداء . ولقد وصفه الله بالعظيم لعظم حجمه . وامتلائه باللحم ولسمنه ولموافقته لهذا البلاء المبين (وتركنا عليه فى الآخرين) .

خلع الله عليه خلعة الثناء على مر الدهور وكر العصور فجعله أباً للأمة المسلمة قال (وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) (سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين) سلام من الله على إبراهيم وسلام على كل مسلم أثناء صلاته عليه ومثل هذا الجزاء من الذكر فى الآخرين والسلام من لله ويجزى الله المحسنين .

بأن ذكرهم الحسن يبقى بعد رحيلهم وتسلم عليهم الملائكة عند خروج أرواحهم وعند بعثهم وعند دخول الجنة ويطلع الله إليهم بالسلام . ولقد جرد كذلك من «إنا» فلم يقل « إنا كذلك» اكتفاء بما مر آنفاً .

(إنه من عبادنا المؤمنين ٭ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) هذه الجملة مستأنفة معللة لا نصياع إبراهيم لأمر الله بذبح ولده فهو من عباد الله المؤمنين .

ولقد نعتته الآية نعتين :

الأول : إنه عبد فعرف معنى العبودية فشرفه الله بهذا فالإضافة فى عبادنا التشريف .

الثانى : نعته بكونه مؤمنا وهذا سر انقياده .

ولما قدم إبراهيم ولده لله زاده الله ولم يضيعه الله فوهب له إسحاق ويكون من ذريته .

يعقوب وهذه البشارة تضمنت ثلاثة أمور :

الأول : أن الله سيطيل من عمره .

الثانى : أنه سيكون نبيا .

الثالث : أنه من الصالحين وجملة وبشرناه معطوفة على جملة فبشرناه بغلام حليم . فدل العطف على المغايرة وأن القصة السابقة كانت فى إسماعيل .

(وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) .

يبين الله أنه بارك لهما والبركة هنا الزيادة فى النسل والثناء الحسن على إبراهيم وإسحاق ثم بين أن من ذريتهما من يسلك درب الآباء وهم المحسنون وفيها من يضل سواء السبيل فيكون أساء لنفسه وانتقصها حقها وهم الكفرة والمذنبون وفى هذا تنبيه على أن العمل يخص صاحبه فلا يلزم من كثرة فضائل الآباء فضيلة الأبناء لئلا يكون هذا سببا فى مفاخرة اليهود وغيرهم بأنسابهم .

قصة موسى عليه السلام

قال تعالى (ولقد مننا على موسى وهارون . ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم . وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على على موسى وهاورن . إنا كذلك نجزى المحسنين أنهما من عبادنا المؤمنين) .

ولقد جاءت هذه القصة هنا فى أعقاب قصة إبراهيم لما يأتى :

١ — أنه من الرسل أولى العزم وهناك شبه مع إبراهيم فى الإيذاء من القوم والهجرة .

٢ — انتهت قصة إبراهيم بأن الله منّ عليه بإسماعيل واسحاق والبركة عليهما والثناء الحسن عليهم وتحدث الله عن هذا المن ثم ذكر منه على موسى وأخيه (ولقد مننا على موسى وهارون . ونجيناها وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) ولقد أنعمنا على موسى وأخيه هارون بالنبوة فهى قمة الإنعام .

ووجوه الإنعام كثيرة ولكنها منحصرة فى أمرين :

الأول : منح المنافع إلى الإنسان بكل أنواعها .

الثانى : دفع المضار التى تؤلم الإنسان بكل أشكالها ولقد أنعم الله على الأخوين بهذه الوجوه فمن عليهما بالنبوة وهى أعظم نعمة من عليهما ودفع عنهما إيذاء فرعون وقومه فقد كان يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم والقوم يسومونهم سوء العذاب . وقيل إن الكرب العظيم أن الله أغرق فرعون ونجى الله موسى وقومه . ونصرهم على قوم فرعون وهذه نعمة وجمع الضمير مع أن السياق يقتضى التثنية لأن النصر كان لهما وللقوم .

والضمير الذى وقع بعد كانوا يجوز فيه أن يكون تأكيدا لاسمها ويجوز أن يكون بدلا منه ويجوز أن يكون ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

(وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم) أعطاهما الله التوراة البليغة البيان التى بينت الحدود والأحكام والقصص والمواعظ ولقد زاد الله السين والتاء على المبين لزيادة المعنى فالمعنى يزيد بزيادة حروف الكلمة ولما كان هارون نبيا وجعله الله عضدا لأخيه يتحدث بلسانه ويحسن القول فى دعوته إلى الله كان كموسى فى إيتائه التوراة . (وهديناهما الصراط المستقيم) ودللناهما على الطريق التى تظهر فيها معالم الحق والصواب، ويكون غايتها الوصول إلى رب العباد . (وتركنا عليهما فى الآخرين) أى أبقينا عليهما ثناء حسنا على ألسنة الأجيال التى تأتى بعدهما إلى يوم القيامة . وهذا ثناء الخلق وأما ثناء الخالق فهو (سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين) سبق شرح ذلك آنفا .

قصة إلياس

(وإن إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) .

هـــذه هى القصة الرابعة التى اتفقت مع الثلاث السابقة فى التصدى للشرك وأهله والدعوة إلى الله تعالى وهذا الرسول هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى بن عمران . ولقد حكى ذلك الإمام الطبرى وحكى ذلك الإمام الحافظ ابن كثير وهو قول وهب ابن منبه .

وقال عبد الله بن مسعود وقتادة ومحمد بن اسحاق والضحاك أنه إدريس عليه السلام الوارد فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا)[1] . وقال القتيبى أنه من سبط يوشع بن نون وقال الطبرسى إنه ابن عم اليسع وأنه بعث بعد حزقيل وفى العجائب للكرمانى أنه ذو الكفل .

والذى أراه :

أن إلياس الوارد فى هذه الآية ليس إدريس الذى رفعه الله مكانا عليا لأنه كان قبل نوح واسمه اخنوخ بن يزد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم فإلياس ليس إدريس لما يأتى :

قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين)[2] .

فالضمير فى (ذريته) إما أن يعود على أقرب مذكور وهو نوح فتكون شجرة إلياس ممتدة الجذور إلى نوح أما إدريس فكان قبل نوح . وإما أن يعود الضمير على إبراهيم لأن السياق فى إبراهيم كان بعد نوح فعلى التقديرين يبعد أن يكون إلياس هو إدريس :

---

(١) مريم آية ٥٦ ، ٥٧
(٢) الأنعام آية ٨٣ — ٨٦

لقد استدل أصحاب الرأى القائل بأنه إدريس بقراءة عبدالله بن مسعود وقرىء (وإن إدريس لمن المرسلين) . (سلام على إدراسين) .

وهذه القراءة ليست حجة لأنه يحتمل أن يكون قد فسر عبد الله بن مسعود إلياس بإدريس تفسيرا برأيه فأدرجه فى مصحفه ثم نقلت عنه فيكون تفسيرا وليس قراءة .

دعوته لقومه :

(إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين) . هذه دعوة إلياس ولقد حثهم على التقوى وحضهم على التوحيد فألا للتحضيض ألا تتقون عذاب الله بعبادته وحده ثم استنكر منهم عبادة صنم لهم .

واسم الصنم بعل و(كان لأهل بك فى الشام والبلد المعروف اليوم ببعلبك وقيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعاوله أربعة أوجه ، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها الناس . وقيل البعل بلغة اليمن)(١) .

إن ذهاب أبى السعود وغيره من العلماء هذا المذهب فى وصف البعل لا يقبل لأنه يلتبس هذا بمعجزة الأنبياء فيقال إن إبليس هو الذى كان يحرك عصا موسى ويدخل فى إحياء موتى عيسى ويهىء للناس إبراء الأكمه

---

(١) هامش مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٥٥

والأبرص ويبرىء الطين طيراً وهو الذى كان يصدر صوت الأنين من الجذع فى عهد الرسول ﷺ فقول المفسرين إنه يتكلم فى جوف الصنم يقدح فى المعجزات التى وقعت على أيدى الرسل عليهم السلام فالقوم عبدوا الصنم ولا نبالغ فى وصفه .

ولما استنكر منهم عبادة الصنم قال على سبيل الاستفهام الإنكارى أتعبدون صنما وتتقربون إليه وتستنصرونه . وتسترزقونه وتستمطرونه وتطلبون منه الخير وهو صنم لا يملك نفعا ولا ضرا ، وتذرون أحسن الخالقين ، أى وتتركون عبادة الله ولا تلجأون إليه فى طلبكم فهو أحسن الخالقين وهو مربيكم أنتم وآباؤكم الأولون ، ولفظ الجلالة نصب على البدل من أحسن وقرىء بالرفع على الابتداء . ولقد تعرض القرآن لربوبية الله تعالى لآبائهم ليكون تعريضا ببطلان عبادة آبائهم فهم سائرون على درب الآباء .

(فكذبوه فإنهم لمحضرون) .

إتهمه القوم بالكذب وهو مخالفة الخبر للواقع . فبسبب التكذيب تحضرهم الملائكة إلى العذاب .

فالفاء الأولى للعطف والثانية للسببية وجملة إنهم لمحضرون جملة استئنافية أتت للتعليل ولفظ محضر اسم مفعول من الفعل الرباعى أحضر أى أحضرهم غيرهم دفعاً ودعاً (إلا عباد الله المخلصين) فإنهم مستثنون من حضور العذاب فلا يحضرونه . فالمستثنى منه الضمير فى فكذبوه فيكون المعنى إلا عباد الله المخلصين لم يكذبوه . ويفسد المعنى لو جعل كونه مستثنى من الضمير فى محضرون لاندراج عباد الله مع المكذبين لكنهم لم يحضروا

العذاب ولا يقال إنه استثناء . منقطع لأن المعنى يكون لكن عباد الله المخلصين من غير هؤلاء (وتركنا عليه فى الآخرين) ثناء حسنا من الناس و(سلام) من الله (على إلياسين) .

قال الإمام الرازى (قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على إضافة لفظ .

آل إلى لفظ ياسين . والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين أما القراءة الأولى ففيها وجوه :

(الأول : وهو الأقرب إنا ذكرنا إنه إلياس بن ياسين فكان إلياس آل ياسين :

الثانى : آل ياسين آل محمد ﷺ .

الثالث : أن ياسين إسم القرآن فأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين . والأوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام وأما القراءة الثانية ففيها وجوه :

الأول : قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين .

والثانى : قال الفراء هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم المهلبون والسعدون)(١)

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ١٥٧

والذى أراه :

أن السلام على إلياس الذى تتحدث عنه الآيات كما كان السلام على كل كل نبى وردت قصته فى هذه السورة (سلام على نوح فى العالمين) (سلام على ابراهيم) (سلام على موسى وهارون)(فيكون هذا السلام على إلياس وهناك جواز فى اللغة كما قال الزجاج ميكال وميكائيل وميكالين كذلك يقال إلياس وإلياسين وأتت إلياسين بدل إلياس لمواكبه نهاية الآيات وفواصلها وإيقاعها على السمع ومن جهة أخرى لم يرد ذكر الرسول عليه السلام فى هذه الآيات والحديث ليس عن القرآن بل عن نبى الله إلياس .

(إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) سبق تفسير ذلك .

قصة لوط عليه السلام :

(وإن لوطا لمن المرسلين. إذ نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزاً فى الغابرين. ثم دمرنا الآخرين. وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون)، هذه لمحة عن قصة لوط موجزة ولكنها أعطت معانى كبيرة تحيط بقصته كلها وهى : —

١ — دعوة لوط قومه إلى رسالته فهو رسول بعثه الله إليهم ويؤخذ هذا المعنى من قوله « وإن لوطا لمن المرسلين » .

٢ — إباء القوم وصدوفهم عن رسالته واختيارهم العمى على الهدى فأخذهم عذاب الله ونجى الله لوطاً والمؤمنين معه « إذ نجيناه وأهله أجمعين » .

٣ — من الأهل من يكون عدوا فزوجته أبت دعوته وأعانت عليه أعداءه .

٤ — النظر إلى آثارهم بعد هلاكهم فهى شاهدة عليهم نهاراً وليلا « إلا عجوزاً فى الغابرين » .

لقد وردت هذه القصة ليعتبر بها مشركو مكة ، فلقد أرسل الله العذاب على المشركين قبلهم فهلكوا ونجى المؤمنون ومن جهة أخرى . إن معالم هؤلاء أصبحت أثراً بعد عين ويراها أهل مكة فى سفرهم للتجارة نحو الشام (وإن لوطاً لمن المرسلين) إن واللام وأسمية الجملة مؤكدات ثلاثة حتى لايقدح قول التوراة فيه بأنه عرض بناته على القوم خشية الإعتداء على الملائكة فالتوكيد أتى على كونه رسولا والرسول يستحيل عليه الخنا (إذ نجيناه وأهله أجمعين . الاعجوزا فى الغابرين) إذ ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر وقت تنجيته وأهله جميعاً إلا إمرأته فكانت مع الذين مضوا فى العذاب فالغابرين اسم بمعنى الباقين والماضين فهو من أسماء الأضداد .

ولقد ساق القرآن وصف امرأته دون أن يقول امرأته كما فى الآيات الأخرى لما يأتى : —

١ — تحقيراً لشأنها .

٢ — بلوغها الذروة فى الكفر فالعجوز تكون فى خريف حياتها فتعمل الخير لقرب رحيلها أما زوجة لم تعمل ذلك (ثم دمرنا الآخرين) ثم أهلكنا فالتدمير الإهلاك واسناد التدمير إلى الله دليل على عظم العذاب والمراد بالآخرين الكفرة .

(وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) .

وإنكم لتمرون صباحاً ومساء على بقاياهم ،وهمزة الإستفهام داخلة على محذوف تقديره أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا بهؤلاء الأقوام النافرين عن دعوة رسولهم وكان مآلهم الهلاك ، ولقد أعطت الآية معنى ثانوياً وهو أمر قريش باعتناق الإسلام، ومصبحين حال أى تمرون عليهم وقت الصباح وبالليل معطوف على مصبحين فهو حال أيضاً والباء للملابسة .

قصة يونس عليه السلام

(وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من من المسبحين. للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين) .

ساق الله فى هذه الآيات مشاهد من قصة يونس لم تذكر فى مواضع أخرى من السور القرآنية ،وهى وصف الحال فى السفينة وماوقع فيها من الإقتراع ، وصف حاله بعد أن قذفه الحوت وإنعام الله عليه باليقطينة (وإن يونس لمن المرسلين) يونس هو يونس بن متى ومتى اسم أبيه أى أنه من جملة الرسل الذين أرسلوا إلى البشر ولقد ذهب بعض العلماء مثل الخازن والألوسى إلى أنه أرسل إلى أهل نينوى وهى من أرض الموصل فى العراق وقيل كان باليمن ولقد ذهب بعضهم إلى أنه كان بالشام واستمد هذا من العهد القديم باعتبارة أقدم كتاب تاريخى (وصار قول الرب إلى يونان بن أمتاى قائلا قم ثم أذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها

لأنه صعد شرهم أمامى فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب)(١) .

والذى أرجحه أن أحداث يونس كانت فى فلسطين وبالقرب من مدينة يافا وهى على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

كما وجد هذا النص فى العهد القديم وإننا نظرنا إليه على أنه أقدم كتاب تاريخى مع الإعتراف بتحريفه وأيضاً لأن الحيتان موطنها البحار ولا يتخلل العراق بحار وأنهار .

ولقد أقترنت الآية بمؤاكدات ثلاثة :

إن واللام واسمية الجملة لئلا يتوهم أحد الشك فى رسالته بسبب أحداث يونس مع قومه ، واستعمال القرآن للاستعارات فيها قد يقدح فى رسالته .

وليس الأمر كذلك فإن يونس من جملة المرسلين ولم ينقص عنهم شىء .

---

(١) العهد القديم « يونان » الإصحاح الأول آية ١ — ٣ ص ١٣١٥

درء الشبه عن يونس عليه السلام :

لقد وردت ألفاظ فى الآيات التى تحدثت عن يونس أو همت بعض المفسرين أن التقام الحوت ليونس كان عقاباً له :

وهذه الآيات هى :

١ — قال تعالى : (إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم) .

٢ — (وذ النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه)[1] .

٣ — (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم)[2] .

فالألفاظ فى الآية الأولى هى أبق ومليم وفى الثانية مغاضبا وقوله فظن أن لن نقدر عليه، ولقد تحامل عليه بعض المفسرين من هؤلاء العلامة أبى السعود قال («إذ أبق » أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من غير إذن ربه حسن إطلاقه عليه)[3] وتحامل عليه أيضاً الإمام الألوسى .

ونقل عبارة أبى السعود كما هى وازداد تحاملا عليه الإمام سليمان العجيلى الشهير بالجمل (وفى الخبر فى وصف يونس أنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوة تفسح تحتها تفسح البعير تحت الحمل الثقيل فمضى على وجهه مضى الآبق الناد .

---

(١) الأنبياء آية ٨٧ (٢) ن آية ٤٨

(٣) مفاتيح الغيب وبهامشه تفسير أبى السعود ح ٧ ص ٥٥٠

وقال ابن مسعود أبق من أمر ربه حين أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم وقد كان يتوعد قومه بنزول العذاب فى وقت معلوم وخرج من عندهم فى ذلك الوقت فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم فلذلك ذهب مغاضبا وكان من حقه أن لا يذهب إلا بإذن جديد)(١) .

وحمل عليه أيضا فضيلة الأستاذ عبد الوهاب النجار قال (وفى اعتقادى أن يونس كلف بالذهاب إلى أولئك القوم عقيب نبوته ولم يكن قد مرن على النبوة وواجباتها وآداب أهلها لأن العلم بذلك يستدعى مدة وتكرر الوحى، والازدياد من معرفة الله تعالى والارتياض على الوحى، وتلقيه لحداثته فى النبوة هى التى خيلت إليه ما قلنا من أنه خيل إليه أنه بابتعاده وتغربه فى البلاد ربما استتبع إعفاءه من تلك المأمورية أضف إلى ذلك أنه كان حدث السن فقد أورد الألوسى فى تفسيره أن سنه كانت ثمانية وعشرين سنة ومن كان حديث العهد بالنبوة ومن فى مثل سنه يغفر الله تعالى لهم بعض ما عملوه عن غير تمرد وقصد جازم إلى المعصية)(٢) .

والذى أراه :

أن يونس عليه السلام أرسله الله وهو كغيره من الرسل أرسله على رأس الأربعين إلى أهل نينوى وأما ما ساقه الألوس .

فلا أساس له من السنة فهو يريد بذلك أنه حديث السن ليست لديه

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ صـ٥٥٣
(٢) قصص الأنبياء صـ٢٦٢

الدربة فى الرسالة كما رماه الجمل أنه كان ضيق الصدر فدعا قومه إلى دينه فصدفوا عن دعوته وأبو قبولها فغضب يونس من صدفهم وإبائهم فهاجر تاركا بلده كاخوته من الأنبياء باحثا عن قوم آخرين يبث فيهم دعوته بيد أن هذه الهجرة كانت اجتهادا من يونس وليست بوحى من عند الله فركب سفينة مشحونة فابتلاه الله تعالى ببلاء شديد لأن البلاء يصقل النفس ويجعل صاحبها كالطود الشامخ يهزأ بالعواصف فلما تركت السفينة الشاطىء اضطربت ولم يستطع قبطانها العود إلى مرفئها التى انطلقت منه وكادت تهوى فى قاع البحر فأرادوا أن يخففوا عبئها الثقيل فاقترعوا فخرج سهم يونس فألقى بنفسه فى البحر لينجو من فى السفينة المشحونة وهذه أخلاق النبوة فقيض الله له حوتاً فالتقمه رحمة به من الهلاك فى قاع البحر وهو مليم نفسه على ترك القوم وبعد ثلاثة أيام كان جوف الحوت حصنا ليونس فنبذه بالشاطىء فكان الحوت كالكاره له فأنبت الله عليه شجرة القرع فأوراقها ذو طابع كبير وخشنة الملمس فلا يقف فوقها الذباب حتى لا يضر يونس عليه السلام .

ثم أرسله الله تعالى إلى قومه السابقين فلقد آمنوا بيونس حين تركهم وخافوا نزول العذاب عليهم فجأروا بالدعاء طالبين من الله أن لا ينزله وذكر الله عددهم فى المرة الثانية إيذانا بأن الأولى بيونس أن يصبر على هؤلاء القوم الذين يزيدون على مائة ألف فالله لا يريد إهلاك هذا العدد الكثير .

وتفسير الآيات الواردة فى شأنه بما يأتى :

١ — (إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم) هنا استعارة شبة خروج يونس معتمدا على الاجتهاد دون الوحى بالعبد الآبق بجامع عدم الإذن من السيد فى كل ثم حذف

المشبه به وأقام شيئا من لوازمه وهو الإباق ثم اشتق منه الفعل الماضى على سبيل الاستعارة المكنية التبعية فيكون المعنى خرج يونس باجتهاده إلى السفينة المملوءة فاضطربت فى البحر فساهم أى اقترع فخرج سهمه فكان من المهزومين . فالتقمه الحوت وهو مليم نفسه على هذا الاجتهاد ولم يقل الله تعالى فابتلعه لأن الابتلاع فيه مضغ الشيء أما الالتقام فليس فيه مضغ فالحوت لم يقطع له لحما ولم يهشم له عظاماً بل احتفظ به فى جوفه .

٢ — (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه) .

واذكر صاحب الحوت وقت أن ذهب مغاضبا فالمغاضبة كانت من الطرفين غضب يونس من قومه لعصيانهم وغضب القوم لأنهم لا يريدون ترك ماهم عليه . فظن أن الله لن يضيق عليه طريقه عند اجتهاده فخرج فكان البلاء .

٣ — (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين).

هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بالصبر وأن لا يضجر من قومه فلا يكون كيونس الذى التقمه الحوت فنادى وهو مملوء غيظا على قومه الذين لم يؤمنوا به بادىء ذى بدء وعلى نفسه التى ضجرت فاجتهدت فى الخروج فلولا أن لحقته وعمته رحمة الله لألقى على الشاطىء وهو مذموم على اجتهاده والسر فى التعبير بقوله (تداركه) بدلا من أدركه أن المعنى يزيد بزيادة الحروف .

فكان الإدراك بالنعمة حثيثا وسريعا فى الوصول إليه .

وهنا فى هذا النص أمور تبعد يونس عن موطن الذنب التعبير بلولا

يدل على أنه لم يقع منه ما يوجب الذم أو قد يكون هـذا من باب ترك الأفضل فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين : (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) أى أعاد وصله بالوحى بعد فترته وجعله من الصالحين أى النبيين .

ولقد درأ الرسول صلى الله عليه وسلم كل غائلة عنه فقال : (ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى)(١).

ولقد زاد فى الدفاع عنه فقال : (ولا أقول إن أحداً أفضـل من يونس بن متى) ٢) .

نأتى إلى آيات صورة الصافات :

(فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين) .

فلولا أن يونس عليه وعلى نبينا السلام كان من المسبحين قبل البلاء وأثناءه لمكث فى جوف الحوت إلى يوم القيامة فحمل الله الحوت على لفظه ولقد أفاد التعبير بقوله فنبذناه إلى أنه كان حملا على الحوت فلفظه من بطنه كالمكاره له وكان ذلك بشاطىء عار من الأشجار والنبات والبناء وآثر حرف الباء على جرف الجر على ليدل على أنه لفظه برفق (وهو سقيم) جملة من المبتدأ والخبر موقعها حال ومعناها لفظه وقد اعتراه الهزال والضعف كأنه كان مرض وطال أمده وجمع سقيم سقام مثل كريم وكرام

(١) رواه الشيخان واللفظ للبخارى حـ ٤ ص ١٩٣

(٢) رواه البخارى حـ ٤ ص ١٩٤

(وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) تفضل بنعمة إنبات اليقطينية لتدرأ عنه لفح الشمس وأذى الحشرات نهارا والبرد ليلا وتفضل الله عليه بنعمة الوحى وأمره بالذهاب إلى نفس القوم .

(وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين) أى إلى نهاية آجالهم فالإيمان سبب فى التمتع بنعم الله تعالى كما قال تعالى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون)(١).

ولقد أنعم الله على يونس نعما متعددة :

١ — نعمة الحفظ فى بطن الحوت من الغرق والهلاك .

٢ — نعمة إلقائه بالشاطىء برفق دون أن يبقى فى جوفه إلى يوم القيامة .

٣ — نعمة إنبات اليقطينية .

٤ — نزول الوحى عليه .

ولقد انهى الله قصتى لوط ويونس بنهاية تخالف القصص السابقة ولم يذكر السلام عليهما .

لأحد أمرين :

الأول : لما كان معلوما للقارىء أن الله يسلم على كل رسول فى نهاية قصته اكتفى بعدم ذكره .

الثانى : أنه اكتفى بالتسليم الوارد فى آخر السورة (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فهو الشامل لكل الرسل .

---

(١) المائدة آية ٦٥، ٦٦

مناقشة المشركين فى بعض القضايا العقائدية :

لقد زعم القرشيون أن الملائكة بنات الله موافقين قبائل جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح فناقشهم القرآن فى ذلك فجاء الأمر فيه بقوله :

(فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون . أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين) .

ومناسبة هذه الآيات بالآيات قبلها . أن الله تعالى أمر الرسول ﷺ فى صدر السورة بتبكيت قريش ودحض مذهبهم فى إنكار البعث فأمرهم باستفتائهم فقال : (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا) ... إلخ ثم ساق حديثا عن الساعة وبعض مشاهدها من كيفية حشر الكافرين وسؤالهم وسؤال بعضهم بعضا ثم صور للقارىء بعض صور الجنة ونعيمها وحديث السمر وما فيه من ذكر النعمة . وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن النار وأهوالها ثم أعقب الحديث الموجز عن الأمم السابقة وعن رسلهم بقوله :

(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين) وبعد هذا الإجمال أطنب وعدد بعض الرسل بدأهم بنوح ثم ثنى بإبراهيم ثم ثلث بموسى ثم تلاه بإلياس ثم أعقبه بلوط ثم قرنه بيونس ثم قال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون) فالفاء للترتيب وهى لعطف هذا الأمر على الأمر السابق فى صدر السورة (فاستفتهم أهم أشد خلقا) . ولا يعد ما بينهما فصلا بين المعطوف عليه والمعطوف فإنها جمل فلاستقلالها يغتفر فيها أولا يغتفر فى

المفردات (والكلام هنا لما تعانقت معانيه وارتبطت مبانيه وأخذ بعضها بحجز بعض حتى كان الجميع كلمة واحدة لم يعد البعد بعداً كما قيل :

وليس يضير البعد بين جسومنا
إذا كان ما بين القلوب قريبـــا)(١)

ولقد تولى القرآن الرد على فريق قريش وهما الملائكة بنات الله وأن الملائكة إناث رد الله عليهم بما يأتى (ألربك البنات ولهم البنون) وهذا الاستفهام الإنكارى يحمل فى ثناياه دليلا على بطلان الفرية الأولى وهو أن طبائعهم تستنكف البنات فكان الواحد منهم إذا رزق بأنثى يمتلىء غيظا ويسود وجهه ويتوارى من القوم من سوء رزقه يصور القرآن حال هذا النوع بقوله (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون)(٢) .

ولهذا ظهرت ظاهرة الوأد فكانو يئدون البنات فكيف يسندون الشىء الذى يستنكفون منه إلى الله تعالى ؟ فالشىء الذى يستنكف منه المخلوق كيف يسنده إلى الخالق ؟

وإعراب تلك الآية ما يأتى : الهمزة للاستفهام الإنكارى والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم والبنات مبتدأ مؤخر . والبنون مبتدأ مؤخر تقدم خبره . ولقد رد على الفرية الثانية وهى أن الملائكة إناث بقوله (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) والرد بما يأتى :

---

(١) روح المعانى جـ ٢٣ ص ١٤٨
(٢) النحل آية ٥٨ — ٥٩

١ — إن طرق إثبات الشيء إما الحس وإما الخبر وإما النظر وهؤلاء لم يقيموا على فريتهم دليلا . أما الحس هنا مفقود لأنهم ماشهدوا خلق الملائكة قال الله (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون) فهذا إضراب إنتقالى إضراب عن التبكيت السابق بالاستفتاء إلى التبكيت بهذا ويكون المعنى بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلق إناثا والأنوثة من أخس صفات الحيوان وهم حاضرون ناظرون أثناء الخلق حتى يقولوا بذلك وجملة وهم شاهدون إما حال من فاعل خلقنا أو عطف على خلقنا وهذا من عطف الجمل .

٢ — وأما الخبر فمفقود أيضا لأنه يفيد العلم إذا ورد من طريق الصدق . وأهل مكة حين قالوا ذلك كانوا أفاكين كذابين) قال تعـــالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون وهذا استئناف صدر بألا التى تدل على الاستفتاح والتنبيه وهذا الاستئناف سيق لإبطال مذهبهم الفاسد . وولد فعل ماضى وفاعله لفظ الجلالة . وقرىء ولد بالرفع وهو مضاف ولفظ الجلالة مضاف إليه وعلى ضوء ذلك يكون ولد خبر لمبتدأ محذوف تقديره ليقولون الملائكة ولد الله وجملة إنهم لكاذبون مؤكدة لقوله من إفكهم .

٣ — وأما الخبر فمفقود أيضا وفقدانه من طريقين :

أولا : أن العقـــل يرد قولهم لأن الله جل جلاله وعم نواله أكمل الموجودات والأكمل لايليق به اصطفاء الأخس فقال (اصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون) فهذه الآية صدرت بالاستفهام الإنكارى الذى يفيد الاستبعاد والتقريع وهذه الهمزة المفتوحة هى حرف الاستفهام حذفت بعدها همزة الوصل . والاصطفاء أخذ صفوة الشيء ثم وقع التفات من الغيبة إلى الخطاب فى قوله (أصطفى البنات على البنين) وهذا الالتفات لزيادة التوبيخ والتقريع .

(مالكم كيف تحكمون) ؟ هذا الحكم الذى لا يستسيغه العقل بل يستهجنه ويستقبحه (أفلا تذكرون) حذفت إحدى التاءين وقرأ طلحة بن مصرف بسكون الذال وضم الكاف والفاء للعطف على مقدر أى تلاحظون ذلك فلا تذكرون بطلانه فإنه مركوز فى العقول .

ثانيا : إذا كان مازعموه حقا فليأتوا بدليل على صحته . قال تعالى : (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) هذا إضراب انتقالى أضرب عن توبيخهم وتبكيتهم بتكليفهم بما هو مستحيل أى ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بنات الله ؟ . إن كانت هناك حجة (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة زعمكم (إن كنتم صادقين) فى هذا الزعم والأمر للتعجيز وأضاف الكتاب إليهم للتهكم بهم (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين) . كان الأسلوب فى الآيتين الآنفتين أسلوب خطاب وصدرت هذه الآية بأسلوب الغيبة والسر فى هذا الالتفات هو الإيذان بعجزهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضى الحال أن يعرض عن خطابهم ويحكى سلوكهم المشائن ولما كانت فريتهم قد بلغت شأواً بعيداً فى الكذب كرر الحديث عنها تبكيتا لهم فقال :

« وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا » .

ولقد تباينت الآراء فى المراد بالجنة :

(الأول : قال مقاتل أثبتوا نسبا بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنا لاجتنانهم أى لاستتارهم عن الأبصار أو لأنهم خزان الجنة وأقول هذا القول عندى مشكل لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) والعطف يقتضى كون المعطوف مغاير للمعطوف عليه فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ماتقدم .

الثانى : قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم ؟ قالوا سروات الجن وهذا أيضا عندى بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسبا .

الثالث : روينا فى تفسير قوله تعالى « وجعلوا لله شركاء الجن » أن قوما من الزنادقة يقولون الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس فقوله تعالى « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا » المراد هذا المذهب وعندى أن هذا القول أقرب الأقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهرمن)(١) .

والذى أراه :

أن المراد بالجنة هم الملائكة ويدل على هذا سباق الآيات الذى تحدث عن فريتهم التى يزعمون فيهـا أن الملائكة بنات الله فالضمير فى جعلوا كالضمائر السابقة العائدة على قريش .

والنسب هو زعمهم السابق ومع احترامنا لإمامنا الرازى بأننا لو قلنا إن المراد بالجنة الملائكة لا يقتضى العطف المغايرة وإذا وقفنا وقفة تأمل لأدركنا أن العطف هنا فيه مغايرة ووجه ذلك أن الحديث السابق كان عن محاجتهم ودحض فريتهم . والحديث فى قوله تعالى « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » حديث عن ثمرة افترائهم وهو العذاب وأعاد الفرية مرة أخرى لشناعتها ولما يترتب عليها من العذاب .

« ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » أى ولقد علمت الملائكة أن هؤلاء القوم الذين زعموا هذا القول محضرون العذاب وهـذا إشعار للمشركين بأن الملائكة لا تقبل هـذا منهم بل لا تشفع لهم . والتعبير باسم المفعول فى محضرون يوحى بأنهم يدعون إلى نار جنهم دعا . وعند مشاهـــدة

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ١٦٢

الملائكة لهؤلاء القوم وهم فى العذاب يصيحون قائلين « سبحان الله عما يصفون » أى تنزه الله تعالى عن كل الأوصاف التى لا تليق بجلاله وعظمته ومنها قولهم الملائكة بنات الله التى تحضر العذاب . «إلا عباد الله المخلصين» منهم ينزهون الله عما يصفه هؤلاء وغيرهم وهذا الاستثناء إما من ضمير الرفع فى محضرون فيكون المعنى إلا عباد الله المخلصين لا يحضرون العذاب وإما من ضمير رفع فى جعلوا فيكون المعنى إلا عباد الله المخلصين لم يجعلوا بينه وبين الجنة نسباً .

وإما من ضمير الرفع فى يصفون فيكون المعنى إلا عباد الله المخلصين فهم ينزهون الله تعالى وهو الراجح لقرب الكلام عنه وابعد الضمائر الآخرى وعلى ضوء ذلك يكون الاستثناء منقطعا . والمخلصين بكسر اللام اسم فاعل من أخلص اى أخلص العبادة والاعتقاد لله و بفتح اللام من أخلصه الله بلطفه (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم)

لقد تحدث الله فى الآيات السابقة عن الأدلة التى دحضت مزاعم المشركين ثم اتبع ذلك بالحديث عن حقيقة غابت عنهم وهى أنهم يعجزون عن حمل أحد على الكفر أو يقسرون أحدا على الشرك .

فللنار وقودها من البشر طبيعتهم تجعلهم يستجيبون للفتنة « فإنكم وما تعبدون » .

الفاء واقعة فى جواب شروط محذوف تقديره إذا علمتم هذا فإنكم الخ وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب لإظهار كال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام والواو عاطفة وليست بمعنى مع إذ لافعل هنا وما معطوفة وهى موصوله فيكون المعنى فإنكم ومعبودكم .

« ما أنتم عليه بفاتنين » ما نافية وأنتم مبتدأ والباء حرف جر زائد وهو خطاب للمشركين ومعبوديهم من باب التغليب وفاتنين خبره مرفوع

وعلامة الرفع الواو المقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد عليه ، الضمير يعود على ما فى ما تعبدون وهو متعلق باسم الفاعل فاتنين ومفعوله محذوف تقديرة أحداً . «إلا من هو صال الجحيم» من مستثنى من أحد أو أنه مفعول فاتنين إن جعلنا الاستثناء مفرغاً أى ليس هنا مستثنى منه وصال اسم معتل كقاض وهو خبر للضمير هو مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكين (ومامنا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) .

هذه الأوصاف الثلاثة حكاية لأقوال الملائكة وهى : —

١ — الصفة الأولى : ما منهم أحد إلا له منزلة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى حدودها وهذا المقام هو المقام من الله ويحتمل أن يكون مقام الأعمال التى يكلفون بها كقبض الأرواح وتقسيم الأمور من رزق ورياح ومطر وغيرها .

٢ — الصفة الثانية : كونهم صافين فى عباداتهم «وإنا لنحن الصافون» ولقد ذكر السيوطى سبب نزول هذه الآية فقال (أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى مالك قال : كان الناس يصلون متبددين(١) فأنزل الله «وإنا لنحن الصافون» فأمرهم أن يصفوا)(٢) أى الصافون أنفسهم وأقدامهم فى العبادة أو فى منازل الخدمة أو حول العرش أو الصافون أجنحتهم فى الهواء ينتظرون الأمر .

٣ — كونهم المسبحين : أى المقدسون لله عما لا يليق بجلاله وجماله . والغرض من هذه الأوصاف الثلاثة مبالغتهم فى العبودية فلا يأخذون

---

(١) مفرقين
(٢) أسباب النزول ص ١٤٦

قصيبا من خواص أبيهم فهم يدرأون بهذه الأوصاف ما افتراه المشركون من جعلهم بنات الله ولقـد قرنت الملائكة أوصافهم بالموكدات المتعددة إيذانا بأن هذا صدر منهم عن كال الرغبة وهذا شرف لهم .

(وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين) هـــذا التفات من التكلم إلى الغيبة وكأنه يذكر حديث قوم اتصفوا بالعدم لأن هـذا العذر لا تقوم له قائمـة فهم يقولون لو أن لنـا كتابا من جنس الكتب التي نزلت على الرسل لهـدايات البشر لأخلصنا العبادة لله تعالى وأن مخففـة من الثقيلة والفاء هي الفارقة (فكفروا به فسوف يعلمون) .

ولقد أرسل إليهم سيد الرسل محمد ﷺ بالقرآن سيد الذكر فكفروا به فالفاء فاء الفصيحة كما في قوله تعالى .

« فاضرب بعصاك البحر فانفلق » . « فسوف يعلمون » عاقبـة كفرهم وصدودهم وما يحل بهم من الانتقام وهذا تهديد لهم ولما دعاهم الرسول ﷺ وبالغ في دعوتهم ولم يقصر في حقهم وكانوا سادرين في طغيانهم سلى رسوله بقوله (ولقـــد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون) .

الواو واقعـة في جواب قسم محذوف تقـديره والله لقد وصدر الآية بهذا القسم للاعتناء بما تضمنته الآيات بالنصرة والغلبة وظهور نور الله . فقوله « وإنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون » يجوز أن يكون تفسيراً لكلمتنا أو بدلا منها والوعد ورد في محل آخر (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) ولايخفى على القارىء هـــذه المؤكدات إن واللام واسمية الجملة والحصر وإعادة معنى الجملة . ولايقدح في هذا وقوع الهزائم للمؤمنين فإن الهزيمة بلاء والاستشهاد ظفر بأعلى الجنان .

ولما كان الرسول والمؤمنون لا يستطيعون مجابهة المشركين فى مكة لقلة عددهم وضآلة عدتهم وأمروا على لسان الرسول بالإعراض عن قتالهم والصبر على أذاهم فقال (فتول عنهم حتى حـــين) أى إلى مدة الإعداد والوصول إلى أرض الإنطلاق ، وهى دار الهجرة ويوم لقاء الجمعان ، وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح (وأبصرهم) تجدهم على أسوأ حال حيث يتحرى فيهم القتل وإعمال السيوف ، والأمر والمراد بالأمر بالإبصار الأشعار بقربه وتحقق وقوعه (فسوف يبصرون) مايقع لهم من الدواهى والرزايا ، وسوف للوعيد دون التبعيد ، لما سمع المشركون بهذا قالوا متى هذا فقال الله تعالى: (أفبعذابنا يستعجلون . فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين)، فسبب نزولها (أخرج جويبر عن ابن عباس قال: قالوا: يا محمد أرنا العذاب الذى تخوفنا به عجله لنا فنزلت «أفبعذابنا يستعجلون)(١) وهذا الإستفهام للتوبيخ والتقريع .

«فإذا نزل بساحتهم» يقول العرب نزل بساحتهم يريدون نزل بهم وجائز أن يكون هنا استعارة مكنية حيث شبه تحرى القتل فيهم وحزنهم بخميس يهجم على قوم قاطنين بديارهم بغتة فيحل بهم (فساء صباح المنذرين) أى بئس صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما اعتاد البشر على غزو الأعداء فى الصباح سموا الغارة صباحاً وحتى وإن وقعت ليلا .

(وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون) .

هذا أمر بالتولى والإعراض وهو تسلية إثر تسلية سابقة وتأكيد لوقوع الميعاد ، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) هذا تنزيه الله تعالى عن كل مايصفه به المشركون مما لايليق بجلاله وجماله وعظمته مما ورد

---

(١) أسباب النزول ص ١٤٦

فى هذه السورة من المعانى الأصلية للآيات والمعانى الثانوية لها وهى ترك إنجاز ماوعد به من نصرة المرسلين وأيضاً مالم يرد فى هذه السورة من وصف اليهود لله تعالى ونسبة الولد إليه كما أفترى النصارى ذلك .

والرب هو المالك وحاشا أن يكون جباراً على من يربيه فإن التنزيه يدفعه فيكون المعنى سبحان من رباك وكملك على وجه خاص وهو منزه عما لا يليق به (ورب العزة عما يصفون) أى مالك العزة والغلبة على الإطلاق .

(وسلام على المرسلين) هذا تشريف للرسل عليهم السلام وهذا مجمل بعد أن سلم على بعضهم فيما سبق (والحمد لله رب العالمين) وقد اختتمت هذه السورة بهذه الجملة الكريمة لأن الله أول كل شىء وآخر كل شىء لكى يعلمنا أن نبدأ كتبنا بالحمد والثناء عليه فنكون فى صلة تكشف عن العقول أغشيتها ويعلمنا أن نختمها بالحمد فيكون شكراً على إصابتنا .

الحمد لله على التمام وأرجو الله أن يصلى على رسوله محمد عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

المراجع

«أ»

١ – البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغرناطى ٦٥٤ – ٧٥٤ هـ ، طبعة دار الفكر ١٩٦٣ م ط ٢

٢ – الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، طبعة دار الشعب ١٩٧٠ م

٣ – الفتوحات الإلهية ، سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ، طبعة عيسى البابى الحلبى.

٤ – المفردات فى غريب القرآن « تحقيق » محمد سيد كيلانى أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢هـ طبعة مصطفى البابى الحلبى .

٥ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل فى وجوه الأقاويل أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوازمى ٤٦٧ – ٥٣٨ طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان .

٦ – تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ٧٠٠ – ٧٧٤ هـ طبعة دار الشعب .

٧ – جامع البيان عن تأويل آى القرء أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنه ٣١٠ هـ ، طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٨٨هـ سنة ١٩٦٨ م ط ٣

٨ – روح المعانى، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ طبعة إدارة الطباعة المنيرية « دار إحيـاء التراث العربى بيروت – لبنان .

٩ — فى ظلال القرآن، سيد قطب، طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى ط ١

١٠ — مفاتيح الغيب وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود الإمام محمد الرازى فخر الدين طبعة المطبعة العامرة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ

« ب »

١١ — الإتقان فى علوم القرآن،الإمام جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ طبعة الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٧٥ م

١٢ — اللآلىء الحسان فى علوم القرآن،د/موسى شاهين لاشين، طبعة دار التأليف سنة ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٩ م

١٣ — النهج القويم فى قصص القرآن الكريم ، د/عبد الغنى عوض الراجحى، مطبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٧٥ م

١٤ — الإسلام فى عصر العلم ، د/محمد أحمد الغمراوى طبعة دار الإنسان سنة ١٩٧٣ م

١٥ — التفسير العلمى للآيات الكونية ، حنفى أحمد ، طبعه دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٨٠ م

١٦ — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.الأستاذ/ مصطفى صادق الرافعى، طبعة المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٣٨٩ هـ، سنة ١٩٦٩ م

١٧ — فاتحة الكتاب تفسير الإمام محمد عبده مع أسباب النزول للسيوطى،الإمام محمد عبده الإمام جلال الدين السيوطى ، طبعه مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر سنة ١٣٨٢ هـ، سنة ١٩٦٣ م

١٨ — قصص الأنبياء ، الأستاذ/عبد الوهاب النجار ، مطابع دار الكتاب العربى .

« ج »

١٩ — صحيح البخارى ، الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى طبعة دار الشعب .

٢٠ — صحيح مسلم ، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى المطبعة المصرية .

٢١ — الأحاديث القدسية ، لجنه من العلماء ، مؤسسة جمال بيروت .

٢٢ — إحياء علوم الدين ، الإمام أبو حامد الغزالى ، مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٩ م

« د »

٢٣ — المصباح المنير ، أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى — تحقيق د/عبد العظيم الشناوى طبعة دار المعارف .

٢٤ — مختار الصحاح ، الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى عيسى البابى الحلبى وشركاه .

رقم الإيداع بدار الكتب
٥٦٤٩ / ١٩٨٥م